الشيخ الطيب المهاجي

سيرة وجهاد

تأليف

الدكتور قدور ابراهيم عمار

المهاجي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
1424 هـ 2003 مـ

الشيخ الطيب المهاجي
رحمه الله

الشيخ الطيب المهاجي
سيرة وجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

لقد جاء إعدادي لهذا الكتاب الذي أسميناه " الشيخ الطيب المهاجي " سيرة وجهاد "، بعد أن رأيت ما كتب عن وهران وأنساب شرفائها وعلمائها وشخصياتها الدينية والعلمية وتراجم وسير صلحائها وأعيانها، وعادات أهلها وتقاليد وأعراف مجتمعها، لا يعدو بضعة مؤلفات أكثرها مفقود أو مبتور أو ناقص غير تام، أو مركون عند بيوتات أهل العلم والمعرفة، الذين يحملون من المباهاة في الحديث عنها ما يحملون من الأنانية، جاهلين ما تحمله هذه المخطوطات من الحقائق التاريخية والخواطر الإنسانية والآثار المحمودة التي كثيرا ما تفتح آفاقا جديدة أمام الخاصة دون العامة من الباحثين والكتاب حتى يساهموا حق المساهمة في تجديد تراثها وإحياء تاريخها، فإن وجدت بعض الآثار بعد العسر في البحث عنها، فإنه لم يتم استغلالها، مع العلم أن تاريخ وهران حافل بذكر علمائها وأعلامها، كما أثبتنا

ذلك في كتابنا ممن حل بوهران، وإن توجه ثقافة الجيل الجديد اليوم إلى ماضيه محدود،

وما أخشاه مستقبلا أن لا تجد هذه الآثار يوما من يتيسر له تحقيقها ونشرها وإخراجها إلى النور، لا لشيء إلا لكونها تصبح غير مؤهلة للعمل بحكم طمس حروفها أو إتلاف قسم كبير من أوراقها مما يصعب على الباحث أو المحقق فك رموزها وربط أفكارها، لأنها لم تكن شعرا حتى يأخذ بعضها برقاب بعض،

كما أنني لم أجد في زمننا الحاضر أو زمن من سبقنا ما يذكر للأجيال من أعمال هؤلاء الفقهاء والشيوخ الذين كانوا على الدوام منارا قويا للحركة الفكرية واللغة الوطنية، على الكيفية التي نسعى إلى تحقيقها،

فهم الذين نظروا في الآفاق، وبحثوا في العادات والأخلاق، وحافظوا على التقاليد والأعراف، وقاوموا البدع والخرافات، بكل ما أوتوا من قوة،

وهم الذين وقفوا في وجه الاحتلال في شتى أشكاله، وعملوا على نشر تعاليم الإسلام على ضوء ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتراث العربي الإسلامي، وجندوا أنفسهم لذلك، فكانوا أكثر جرأة واقتحاما على العمل في فتح المدارس والكتاتيب القرآنية والزوايا والتكايا والربط، متخذين منها منطلقا لتبليغ أهدافهم الوطنية وآفاقهم العلمية البعيدة الأعماق، بتدريسهم الأصول الكبرى التي تقوم عليها الحياة العقلية في تياراتها المختلفة، وخاضوا في ذلك معارك لا تنتهي، بدءا بمحاربة الثقافات الأجنبية الدخيلة على عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، والدعوة إلى

الوحدة الوطنية، فكانوا فيها مجاهدين ثوارا، يؤجج الإيمان عواطفهم بعروبتهم وعقيدتهم الإسلامية، متيقضين بأن التعليم وحده كاف لتحرير الوطن من الأفكار الاستعمارية التي عمت المدن والقرى والمداشر والأرياف،

فرأيت أنه من الضروري أن أكرر النظر في كل مرة، في ماضي هذا الموروث وحاضره، لأجمع في هذا الكتاب أو غيره ممن أتوفر عليه في هذه الميادين، من مباحث تاريخية ومواقف وطنية ودقائق لغوية ودينية التي أتاحتها لنا هذه الرحلة التاريخية الطويلة في سيرة هؤلاء العلماء لأرزق منها بهذا التأليف الذي جمعت فيه أخبار هذا الشيخ الجليل " الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله " من حيث سيرته الجهادية، الغنية بآثارها، العميقة بأبعادها الوطنية،

وأقصد بكلمة الجهاد، فداء النفس والتضحية من أجل تحرير العقول من أسر الجهل والأمية التي أصابت هذا الوطن العزيز في مرحلة الظلام الاستعماري، ومن تحمل للأمانة التي ورثها عن علماء الإسلام الذين جاهدوا بالكلمة والقلم، وهو أعظم سلاح قبل السيف والرصاص،

فاقتصرت في الحديث عن ترجمة هذا الشيخ الجليل، لحياته الناظرة إلى آفاق الأمة وأحواله الحاضرة في المشاركة في ضوء ما تركه لنا من موروث في النثر والنظم من المخطوط والمنشور، في قراءات مستفيضة قوامها الجمع والتحقيق والعرض والتحليل في أثواب جديدة من الألفاظ والتراكيب،

فالشيخ الطيب المهاجي رحمه الله كان من العلماء الذين تميزوا بنشاط علمي خارق، واستمرار دائم، إلى تتبع واستقصاء وتمكن من القديم والحديث، ومتانة في القلم ويسر في التعبير، والفقه والشريعة وأصول الدين، فهو في نظرنا أشبه بدائرة معارف من كل فن، وقد تحدثنا عنه بشيء من التفصيل وعن كتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر"، وما يتصل بهما في مواضع كثيرة من أخبار وروايات،

وعلى مثل هذا، جاء التعريف بوهران الكبرى التي كانت معاهد التدريس فيها غاصة بالعلماء والفضلاء الطلاب والتلامذة، كما أنها كانت تحتوي على كتاتيب قرآنية لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وقد شهدت هذه المدينة على يد هذا الشيخ وغيره كثير في الأزمان الطويلة البعيدة المدى، من العلماء المشهورين بالضبط والإتقان وحسن تربية العقول بالعلوم والمعارف، بحثا عن أسباب قوة الأمة بتوفير القدرة الحسنة في المجتمع الجزائري، وكل ما يساعد على العلم ونشره[1]، وما وصلوا إليه في الحضارة والاطلاع، وكثير منهم من كان أديبا ومؤرخا، إضافة إلى عنايتهم بعلوم اللغة والدين والفنون والآداب،

وكم كان بودي لو التفتت إليه جهة علمية أو سياسية ذات صلة مباشرة بتراثنا الوطني الذي ظل منسيا طيلة عهود من الزمن مع ما يتمتع به من أهمية وانفراد في حقله، للتدليل على آثاره المختلفة وصنيعه البين في التاريخ

---

1 المبحث الخاص " وهران في التاريخ " الجزء الثاني من كتاب " الإعلام بمن حل وهران من الأعلام ".

والأدب والدين، لتأخذ على عاتقها نوعا من العلماء الذين جمعوا بين الكلمة العلمية والدعوة الثورية وملؤوا عصرهم حتى فرضوا ذكرهم في أنباء التاريخ الحديث، ولكن مع الأسف أن أمرا كهذا لم يلتفت إليه المهتمون بثقافة الجزائر الواسعة شساعة ترابها الغالي ،

نسأل الله أن يهدي هؤلاء ويهدينا معهم حتى نعطي للذين بنوا مجدنا حقهم. والله ولي التوفيق.

الدكتور

قدور ابراهيم عمار

المهاجي

تقديم

تتمايز الأمم في تاريخ الحضارات بما تقدمه بلدانها من آثار تذكر في صالح البناء الإنساني، وبما تتركه من معالم حضارية كدلائل على وجودها ومشاركتها في هذا البناء، ومن بين ما تتنافس به هذه الأمم هو حضور الذكر لأعلامها ورجالاتها، ولقد أسهمت وهران في إنجاب العديد من القرائح والمواهب طيلة أحد عشر قرنا من الزمن أو يزيد، ولا تزال تلك القرائح والمواهب بجيلها الجديد، تعمل على إحياء تراثها وتجديد ثقافتها المحمولة في أوعية قادمة إلينا من زمن بعيد، من خلال مسيرة جماهيرها وفاعلية هذا الموروث الذي يتجسد يوما بعد يوم في نشاط أبنائها لدى الخلق والإبداع، من حيث تكرار هذا الوجود في نتاجات أدبائها ومؤرخيها ورجال الفكر والثقافة والدين فيها،

فأيام وهران لا تزال إلى اليوم شاخصة في وجدان هذه الأمة على امتداد وجودها في الماضي والمستقبل،

وما هذه الأبحاث والدراسات التي نسهم بها اليوم بإحياء رموزها التاريخية ورجالاتها الدينية وأهل الفكر والثقافة واللغة والآداب فيها، والتي استغرقت منا وقفة طويلة، ما هي إلا جزء يسير من بقية لا تنتهي، حرصنا كل الحرص على أن نقول فيها رأيا ينطلق من حقيقة تاريخية تثبت دور هؤلاء الرجال من العلماء والعاملين في الإصلاح الاجتماعي والحضاري للمجتع الجزائري عامة ومدينة وهران خاصة في الجوانب الفكرية والثقافية والدينية،

وقد وجدت أن العمل في إحياء هذا التراث وبعثه يتطلب عملا كبيرا وجهدا متواصلا باستقدام أمهات المصادر والمراجع من المخطوط في المنظوم والمنثور، أو ما جاء على شكل مذكرات كتبها أصحابها والتي لا تزال مدفونة مركونة في بطون الأضابير والخزائن، مما جعل أصحابها يتمتعون بقيود عالية الإحساس وأوهام التعصب والتحزب والتحاسد والأنانية، متجاهلين بأن تحقيق مثل هذا التراث وإخراجه إلى النور هو في حد ذاته مظهر من مظاهر علمية، وجوهر من جواهر الروح العالية التي تخدم الفكر والروح معا، أو العودة إلى الينابيع الأولى من رواية محمولة أوخبر منقول وخاصة المتصل منه بالأفراد الأحياء،

كما أنني لاحظت عند محاورة أي مثقف في الوطن العربي والعالم الإسلامي حول دور التراث ومعطياته في كياننا الحاضر، أن هذا المثقف يقر لك في الحال بهذا الدور، وأنه لولا ذلك البناء الشامخ الذي شيده

الأوائل وشيوخ الفكر والثقافة والعلم وجميع الفنون، لما قام البناء الحالي، وأن كل لبنة في هذا البناء تشهد لتلك الأيادي والعقول بالدور الجبار الذي قاموا به، إلا أننا عندما نبحث عن مقدار اعترافنا بهؤلاء الأفذاذ، فإننا سنجد أنفسنا مقصرين في التعريف بهم على اعترافنا بكتبهم ومؤلفاتهم ومناهجهم الفكرية في التاريخ واللغة والفقه والشريعة وأصول الدين، بينما يقتضي الحق والواجب أن نعرف بهم وأن نشيد لهم ذكرا يبقى خالدا بعد انتهاء هذا القرن الذي يبدو لنا أننا إن لم نتهيأ لأنفسنا، فإن الحياة الجديدة القادمة ستبتلع كل شيء بعد طغيان التكنولوجية والأجهزة الحديثة التي ستحدد من مواهب الإنسان وتقاليده وتراثه، لذلك شددنا العزم على أن نعرف بطود من أطواد تراثنا الديني واللغوي والفقهي والأدبي،

فقد كانت هذه الاختصاصات تتصل ببعضها اتصالا وثيقا، فبقدر ما يكون الشيخ أو الفقيه عالما في قضايا الدين وشرائعه، نراه يتقن اللغة والأدب والبلاغة والمنطق وربما كان الفرد منهم شاعرا مبدعا كما ستدلنا الدراسة عندما نتصدى للشيخ الطيب المهاجي رحمه الله ومواهبه في الكتابة والشعر بالإضافة إلى العلوم الأخرى بما فيها علوم التاريخ والثقافة العامة،

إن هذه المقدمة المتواضعة أردت أن أفضي- بها إلى حقيقة ملموسة في عصرنا الحاضر، وهي إهمال دارسينا ومثقفينا تراثهم العربي الإسلامي، واستبدالهم له بما لم يفهموا، واستساغوا ذلك استساغة تكاد تنكر الأصل الذي أخذوا عنه،

ويظهر ذلك جليا في كتاباتهم عندما يحاولون أن يتبجحوا بمعارفهم البائسة مما أخذوه عن الغرب من موضوعات متنوعة، بعضها يتصل بالأدب، وبعضها يمتد إلى ما وراء ذلك من أنواع المعارف الأخرى، على أنها لون من الأدب، أو أنها ذات تأثير فيه، محاولين أن يطبقوا هذه المعرفة على تراثنا وثقافتنا، ولو أنها كانت دراسة مقارنة لرضينا بذلك ولكنهم يريدون أن يسحبوا الثقافة العربية قسرا إلى القوالب التي يتقنونها ظنا منهم بأن هذا هو العلم بينما العلم الحقيقي هو أن يعرفوا ثقافتهم معرفة صادقة وأن يلموا بالثقافات الأجنبية التي توسع مدارك الإنسان دون أن يفسح لها المجال أن تقتلعه من أقدامه وأن تنسيه ماضيه وما يحفل به من ثقافة ورجال علم ينبغي أن يذكرهم ويخلدهم في ذاكرة الجيل، فلمثل هؤلاء الرعيل الذي قام بدوره المطلوب على مختلف العصور سواء أكان في العهد العثماني أم في العهد الفرنسي وما عقب ذلك من عصور عرف فيها الشعب الجزائري صنوفا عديدة من التجاوزات بحيث تصدى هؤلاء الشيوخ لكل هذه المخالفات الدينية والخروج على التقاليد والأعراف، انحرافا بحيث كان الشيخ منهم يجهر صراحة عندما يرى خروجا اجتماعيا على تقليد أو عرف لكي يسجل للأجيال رأيه واعتراضه، وقد رأينا بأم أعيننا كيف كان هذا الخروج على التقاليد والأعراف بحيث فسح المجال لتقاليد الغرب وأعرافهم أن تسحق تقاليدنا ومن ثم أعقب ذلك أن دخلت أفكارهم وأساليبهم ومعتقداتهم تجتاح الأقطار العربية والإسلامية فلو أن أجيالنا عرفت سبيل

الحق الذي تحدث به وكتب أولئك الشيوخ العلماء لبقي المجتمع على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي- أو بعده، إذن لقام ذلك التراث بحفظ الأجيال من أن تفقد هويتها وتنزلق وراء الأهواء التي أشاعها المغتصب المحتل وقد وقع ذلك كله بسبب اغتراب المواطن عن تراثه وتقاليده وأعرافه، بعد أن قدمت له أعراف وتقاليد كانت السم في الدسم للأجيال ولم تزل معاناتنا منها حتى الآن،

إن هذه الأسباب وغيرها التي عمقت رغبتي في الكتابة عن هذا الشيخ الجليل الطيب المهاجي رحمه الله وعن كتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" إلى فترات متقدمة من حياتي وليست الفكرة آنية وليدة الوقت الحاضر، لأنني امتلكت هذا الكتاب وراثة عن أسرتي، ولما لي من صلة رحم مع الانتماء إلى قبيلة امهاجة، ولما رأيته من واجب الأداء للوفاء نحو الأباء، وكنت في كل مرة أردد النظر فيه، وتعتمد في ذهني فكرة أن أعلق عليه وأهمش أو أضيف له بعض الحواشي لمعرفتي بكثير من الأحداث التي تدور في الكتاب وبالأشخاص والأعلام الذين يتحدث عنهم الشيخ رحمه الله لكنني كنت أؤجل المشروع إلى وقت آخر لانشغالي بمشاريع أخرى حتى أحسست بنفسي فجأة ترغب في الكتابة، فأخرجت الكتاب وبدأت أكتب فيه وأدون ما لدي من المعلومات، وأجمع غيرها من أقرب الناس إلي وغلى الشيخ فضلا عن رجالات الأسرة ممن لهم معلومات متباينة في هذا الصدد، حتى تكاملت المادة واصبح تدوينها أمرا ضروريا وإخراجها إلى النور واجبا علميا وتقريبها إلى الجمهور عملا ملحا، لأن الشيخ رحمه الله

معروف وبإضافاته على أمهات الكتب في اللغة والفقه وبمساهماته الفذة في التدريس،

لا سيما المطولات العلمية كالألفية والأجرومية بالإضافة إلى المختصرات الفقهية مثل كتاب مختصر خليل، ووجدت أن خير وسيلة للدخول إلى هذا المجال أن أتخذ كتابه مدخلا إلى المحاور التي أريد أن أتحدث فيها وقد جاءت هذه المحاور بمثابة إضاءات وأفكار وسعت من مدارك الكتاب فيما يتعلق بالجمهور، فجاءت أبحاث الكتاب توضيحا لما في الكتاب من مادة تتصل بالإنسان وتتعلق بالتعريف والتوضيح لكثير من علاقاته بشيوخه وطلبته إلى جانب سفراته أو رحلاته . وكذلك سماعه وإجازاته وكل ما يتعلق بحياة الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله وسيرته العلمية من خلال مباحث كتابه القيم الذي اتخذناه بمثابة مفتاح إلى شخصيته،

ومن المعلوم أن الشيخ الطيب المهاجي هو من الرجال المعاصرين الذين قل ذكرهم في كتب الذين تناولوا الحركة الوطنية في الوقت الحاضر، في حين أن مدينة وهران لم تعرف شخصية بارزة لها صولتها كشخصية الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله،

وقد رأيت أن هذا الشيخ وكتابه " أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر " لم ينالا من لدن الدارسين ولا كتاب الموسوعات والمعاجم والفهارس ما يعطيه حقه، بل العكس من ذلك ظل مغبونا محجوبا عن أنظار طلاب العلم وبقي كتابه منفيا في المكتبات،

فتوكلت على الله تعالى وعزمت أن أعيد إليه ما يجب أن يكون عليه هذا الشيخ العالم الجليل وكتابه،

ولابد من الإشارة إلى أن مؤلف الكتاب ومادته تربط بينهما علاقة وشيجة، فهو بسيرته يعكس مادة الكتاب بمعانيها واتجاهاتها، كما أن مادة الكتاب تعكس سيرة الشيخ رحمه الله بعلمه وتآليفه، وتصدره للفتوى والعلم والتعليم بحيث نستطيع أن نقول: إن مادة الكتاب هي شخصية المؤلف نفسه تعرض لنا حياته وسيرته، كما تكشف هذه المادة عن مضامينها ومحتوياتها،

وقد عانيت في ذلك مشقة كبيرة في التوفيق بين الروايات الشفوية التي يتوفر عليها شيوخ القرية من أبناء عمومتي واستخلاص الحقائق لأظفر منها بمعلومة فقهية أو فكرية قد تخلو منها مؤلفاته،

إن الدراسة التحليلية لثقافة المؤلف في ضوء معطيات الكتاب تعرض لنا زخم الآراء التي ذكرها المؤلف وتعبر عن وجهة نظر دينية بالإضافة إلى التزاماته بالمنهج العلمي في معالجة جميع المواضع التي كان يتحدث عنها أثناء الدرس أو الفتاوى أو التي كانت ترد عليه من جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل الرأي والشورى بالإضافة إلى المادة الثقافية المعروضة،

هذا إلى جانب النتائج الأساسية في شخصية المؤلف الجهادية والتعليمية في المناقشة والتحليل والرؤية الفنية للنصوص وغيرها.

والكتاب طبع ونشر في حياة الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله، تولت طباعه الشركة الجزائرية للطبع والأوراق بوهران، ولم تذكر في الكتاب

تاريخ الطبع، لكنه ظهر قبل وفاته، وقد عده الشيخ الطيب المهاجي هدية متواضعة إلى أسرته وعشيرته، متوجا به عمله في الكتابة والتأليف والعلم والتعليم وتصدره للفتوى، إلا أن الكتاب لم يلق الاهتمام على الرغم مع فيه من جهد واضح في الإضافة والإبداع، وما ينبغي عليه من دراسته لكثرة ما فيه من أفكار ومناقشات وتحليل لكثير من النصوص الفقهية والشرعية واللغوية على غرار ما كانت عليه مدارس العلم يومئذ من جمع بين هذه العلوم الدينية الثلاث، لأن اللغة كانت تدرس جزءا من علوم الدين، ولأن أكثر العلوم الشرعية والفقهية كانت عبارة عن منظومات تحتم على دارسها أن يلم باللغة إلماما عميقا،

وربما أغفل الدارسون كتاب الشيخ الطيب المهاجي لأنهم ظنوه كتابا مقصورا على سيرة ذاتية وأخبار كتابية بسيطة وتراجم لبعض رجالات العلم والفقه واللغة والشريعة من بني عمومته وشيوخه ومعلميه ممن كان لهم دور في نشر الوعي الثقافي والتعليمي والسياسي يومئذ، لكننا عندما درسنا الكتاب،

ويرى القارئ ذلك وهو يوغل في أعماق دراستنا أنه كتاب جاءت المعلومات الثقافية والعلمية أغزر مما ذكر في السيرة والنسب، ولعله أهمل جانبا كبيرا من سيرته فلم يذكر إلا المحاور الرئيسية من حياته مما لها صلة مباشرة برموز العصر- وشخصياته وأساطين العلم وشيوخه، وسوف يستغرب القارئ وهو يتطلع في رحلات المؤلف شرقا وغربا، واتصالاته بعلماء العصر كيف كان هذا الشيخ ذا حظوة عظيمة لديهم ومعرفة تامة

بهم، وأنه كان معترفا له بكثير من الفضل في عدد من المواقف والقضايا والمناقشات،

هذا بالإضافة إلى اللقاءات والمعرفة الأسرية العميقة التي رأينا أن نثبتها هنا قبل أن يمحوها الزمن وتخرج عن ذاكرة الأجيال.

عمار المهاجي

النشأة

عندما تذكر أرض القعدة يذكر معها العلم والأدب والفقه والشريعة، وإذا فلا بد لهذه العلوم من رجال ينهضون بها ويثبتون أساسها وينقلونها إلى الأجيال واضحة صريحة، ولو شئنا أن نعد هؤلاء الشيوخ والرجال لوقفنا على العديد منهم، لكن أرض القعدة اشتهرت بشيخ جليل من قرية أولاد سيدي الفريجويدعى الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله،

وموطن هذه القرية كما نعرف في الوقت الحاضر هو وقوعها على ضاحية من وهران، فهي إحدى ضواحيها وقد ذكرها الشيخ الجليل في كتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" عندما قال إنه ولد في القرن الثالث عشر " 1300 " هـ في ربيع الأنور سمي بذلك لأن فيه ولادة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الموافق لعام 1882 للميلاد،

ففي ذلك الشهر المبارك الذي وافق تلك الولادة المباركة وفي الليلة الثانية عشر من نفس الشهر ولد قبل الفجر ذلك الفتى الذي سيكون له شأن في العلم ويتبوأ مركزا بين قومه ووطنه والعالم الإسلامي في الرعاية

والعلم والتربية والتعليم، وهو الشيخ الطيب المهاجي بن سيدي الفريج[2].....

وأصل هذا الشيخ ينتسب إلى قرية أولاد سيدي الفريج من أرض القعدة من قبيلة أولاد علي إحدى قبائل بني عامر بن زغبة المعروفين بعروبتهم وقد كانوا قد انتجعوا من الجزيرة العربية في أوائل الفتح الإسلامي للمغرب العربي، لكنني لابد أن نشير إلى أن الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله ذكر هذه القبائل لا ليذكر نسبه فيهم وإنما كانت قبيلته تجاورهم فعرفوا بذلك على أسلوب التغليب لكنهم في حقيقتهم أدارسة حسنيون.

وقد وقفت على وثيقة[3]خطية تاريخية دلتنا على أصل نسب قرية أولاد سيدي الفريج وعلى جدهم الأعلى العالم العامل والولي الكامل "سيدي ميمون المهاجي[4]بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عيسى- بن الحسين بن عمران بن إبراهيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل لن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"، الذي أنجب سيدي إبراهيم الذي يعد مجمع شرفاء امهاجه، وقد ورد له ذكر في مقطوعة شعرية قالها سيدي عيسى بن موسى المسماة بغية الطالب قبل منتصف القرن العاشر:

قال:

---

[2] كتابنا "الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر" ص 210.

[3] المصدر نفسه، ص 181.

[4] المنظومة المسماة بغية الطالب ص 19

أيوب وميمون المهاجي شقيقـه

ضياؤهـم في شرقها والمغارب

فما هما في البطحاء إلا فريـدة

حواها نظام المجد من كل جانب

وتدلنا الأبيات السابقة على مكانة الممدوح في قومه لما فيه من مآثر ومـا تشير إليه الأبيات من عجائب وأنه كان يطعم النـاس مهما كان عـددهم لأنـه يشير إلى الغيب وأنه كان موصى به من قبل الأسود تحرسـه وهـذا يفسر لنا كيف كان رجال الصوفية الأوائل مثل الشـيخ البـدوي والشـيخ أحمـد الرفاعي عندما كانت تماشـيهم الأسـد وتحرسـهم بالإضـافة إلى معـاني الكـرم وحب الناس لهم وطاعتهم له حتى غدت تعـاليمهم منتشرة بين النـاس كـما يعرف جميع الأرجاء وصار يضرب بها المثل مما تقدمه لأجيالهم مـن المعرفـة والعلم والتربية،

ومن ذرية سيدي ميمون المهاجي[5]سيدي ابراهيم المهاجي الجامع لشرفاء امهاجة، وتنحدر من ذرية سيدي ابراهيم، سـيدي الفـريح بـن محمـد بـن ابـراهيم الذي سميـت القريـة باسمـه، واللقـب جـاءهم مـن جـدهم الأعـلى "سيدي ابراهيم" بن محمد بن سيدي ميمون.

5) كتاب الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر، ص 210 وما بعدها، وكتاب تاريخ امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي والامتداد التاريخي، ص: 135 وما بعدها، ومقالتنا في جريدة الرأي العدد 523 و 524 .

وقد هاجر أحد أحفاده وهو سيدي محمد بن ابراهيم أرض اغريس إلى جبل عرف باسمه فيما بعد، وقد اشتهر في ذلك الموضع الذي هاجر إليه يدفعه زهده ونسكه فكان الناس يسألون عنه فيجابون بأنه في الشرفة وهو الجبل الذي اتخذ في أعلى قمة صومعته يتعبد بها، ولهذا عرف الجبل باسم جبل مكنوس أيضا، ولم يزل الجبل يحمل ذلك الاسم حتى اليوم،

وقد امتد هذا التأثير إلى كل من سكن هذا الموضع، فعرفوا بهذا النسب والفضل، مع أنهم غرباء هاجروا من واد " شولي " بضواحي تلمسان من قرية تعرف إلى اليوم بقرية "بني ورنيد" فهم إحدى فروعها المعروفة ب: " واد فل " وسأعود إليها بشيء من التحليل والتوضيح نظرا للمعلومات التي أتوفر عليها عندما أعود إلى الكتابة عن هذه القرى كما وعدت القارئ الكريم إن شاء الله،

وإن استقصاء النصوص عبر مديات التاريخ في استخدام لفظة "أولاد" و "أبناء" تدل على معنيين مختلفين في الرتبة والمكانة الاجتماعية، فلفظة " أولاد" دلت على شرف النسب وانتمائه إلى أصول عربية أصيلة من نسب حسني ادرسي،

أما " أبناء" فلا تتجاوز البنوة الاعتيادية المألوفة لدى جميع الناس.

ويمكننا أن نضيف وازعا آخر لدراسة هذه المنطقة التي طرحت بوجودها الاجتماعي والتاريخي والجغرافي عدة إشكاليات جديرة بالتأمل، وتأتي على رأس هذه المشاكل أنها تضم عددا كبيرا من القرى التي تتباين فيما بينها في

طبيعتها وحياتها الاجتماعية بحيث أصبحت كل قرية تفخر بما لديها من مزية تتباهى بها بين الناس،

غير أننا لا نستطيع أن نجزم إن كان هذا التباهي بنسبها أو تعبدها أو علمها لأن هذا الأمر يصعب استقصاؤه، لكننا نستطيع أن نعدد بعض هذه القرى التي تعد امتدادا لأرض القعدة وهي:

قرية ارحايلية أو العناترة المعروفين بالقطارنية"، حيث جاءت تسميتهم بذلك نظرا للأعمال التي كانوا يتعاطونها أبا عن جد، وقرية ازياينة ومن أفقههم وأنبلهم الشيخ الفقيه عبد القادر بن زيان، وقد لحقتهم هذه التسمية من قبل أحد شيوخهم الكبار الذين عرفوا بالورع والتقوى وحبهم لبيوت الله، فاتخذوا من هذا الاسم علما لهم على غرار القبائل العربية ولهم في النسب علو ومكانة، وأولاد علي بوزيان،

ومن قرى أرض القعدة الكبرى من بادية امهاجة، قرية أولاد سيدي الفريح وقد أفردتهم بكتابين فالأول منهما أسميته، كتاب[6]: "الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر" وقد أتيت فيه على نسب هذه الأسرة بشيء من التحليل والتوضيح، معتمدا في ذلك على جملة من الوثائق المخطوط منها والمنشور،

وثانيها يحمل عنوان " تاريخ امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي والامتداد التاريخي" يحتوي على تاريخ مفصل لهذه القرية مع

6 الهامش رقم "1" من ص: 24

ترجمة كاملة لشيوخ العلم والفقه وحفظة القرآن الكريم وذكر نسبهم حتى اليوم من عام 2003 للميلاد،

وقرية أولاد الحاج العربي ومن أعيانهم الشيخ الفقيه عبد القادر بالشارف، والعرايبة بجميع فروعهم - ابراهيم مفلح، بوزيان مفلح، سنوسي مفلح، وحزاب ابراهيم مفلح، ومن شجعانهم وأنبلهم الشهيد حزاب ابراهيم مفلح "مولاي علي" ولد حمزة، من مواليد عام 1926 من أب عرف بالتقوى والصلاح، محمود السيرة بين أهله وبني عمومته وأقرانه، حامل لكتاب الله والسنة النبوية الشريفة،

فهو من نسب هذه القرية، التي ترجع في أصل سلالتها إلى إحدى فروح "امهاجة" الذي يرفع نسبهم إلى سيدي ابراهيم بن محمد بن سيدي ميمون الجامع لفروع امهاجة،

فنشأ هذا الفتى حزاب ابراهيم مفلح الملقب بـ: "مولاي علي" ولد حمزة مع لداته يتعلم القرآن الكريم في كتاتيبها على يد مجموعة من الفقهاء من بني عمومته، ثم تهيأت له فرصة الالتحاق بجيش التحرير عام 1956 بينما كانت الثورة الجزائرية في أوج صراعها وعنفوان احتدامها إلى سنة 1959 حيث سقط شهيدا في إحدى المعارك التي قادها مع مجموعة من المجاهدين بعين كارمان من أرض معسكر رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه وله من الأبناء محمد وفاطمة.

وأولاد بودادي المعروفين بالمصاطفة[7]، وأولاد اسوايحية، وأولاد بوشنتوف، ومن أعيانهم الشيخ الجليل الفقيه الحاج بوشنتوف[8]، وأولاد سيدي اعمر[9]، وأولاد الحاج العربي، والبغاديد، وأولاد ازوادرة، وأولاد اسكارنة، وأولاد القواسم، وأولاد المخاشيش، وأولاد الضيايات، وأولاد الحمايدة، وأولاد العثامنية، وأولاد المخاطرية، وأولاد سيدي اسعيد، وغيرهم كثير ممن سنأتي على ذكرهم، في مبحث خاص بها إن شاء الله تعالى وأمد في عمرنا.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى مادتها التاريخية التي أدركها القدم، ولف الضباب أجزا كبيرة منها، ولعل ذلك راجع إلى كون أن هذه البيوتات التي استوطنت أرض القعدة من بادية امهاجة سواء أكان ذلك أثناء الفتح الإسلامي أم بعده بقليل، فهي في معظمها لم تعتمد التدوين في حفظ موروثها الثقافي والتاريخي، ولو كان لها ذلك، لما وقف الباحث اليوم حائرا مشدوها إزاء العديد من ظواهرها التاريخية من معالم وآثار ومواقع قديمة في ضوء الأطلال الدارسة، وملامحها الاجتماعية من عادات وتقاليد وأعراف التي بغيرها تفقد هذه الأسرة أو تلك أصالة وجودها،

---

[7] كتاب "امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي، مصدر سابق، ص: 121 وما بعدها.

[8] المصدر السابق، ص: 120.

[9] المصدر السابق ، ص: 124.

وما نقف عليه اليوم في مثل هذه الدراسات، فهو عبارة عن روايات تعبر عن أخبار مختلفة قد تطول الحكاية فيها أو تقصر بحسب مضمونها، وهي أمور لا تكاد تجد فيها لفظا يحتاج إلى عمق وتأمل في معناه،

وأما قرية ارمايسية، فكانت تسمى بأولاد سيدي الفريح الكبار نسبة إلى سيدي الفريح المهاجي الذي استوطنها عندما أجلته فرنسا وأبعدته عن أرضه وممتلكاته من أرض سميت باسم المكان الذي كان يتعبد فيه أبوه الشيخ محمد بن ابراهيم المهاجي باسم (الشرفة) كناية عن علو الجبل وارتفاعه الذي كان يكنس فيه كما سمي أيضا بجبل مكنوس[10] ونشير بهذه المناسبة إلى أحد رجالها ويدعى الحاج البشير بن عفان بن هارماس بن عبد القادر بن عواد، الذي عرف بسعة الفضل وكرم الأخلاق، فقد كان أحد رجال قرية ارمايسية الذين أصابوا بحظ من نصيب الحفظ والدراسة، وقد فسح الله له في رزقه فكان يتفضل على الناس ويمد يد المساعدة إلى أبناء قومه وكل من يمت له بصلة قريبة أو بعيدة، وخاصة العلماء والفقهاء ورجال الدين وحفظة القرآن الكريم، ولم يزل على ذلك العهد والدأب من أجل التعاون مع الجمعيات والمؤسسات الخيرية ودور العلم وأماكن العبادة، وله حضور في شؤون قريته، يدعو إلى الخير والمصالحة والمحبة، وكلمته لدى الناس مستجابة لأنهم يعرفونه رجلا يسعى في خير الناس وصلاحهم، وهو إلى جانب ذلك رجل يؤدي ما عليه من واجبات اتجاه خالقه،

10 الهامش رقم " 1 " من ص: 14 ..

ولهذا نراه تقيا يخاف الله، وكانت له مشاركة في جبهة التحرير الوطني حتى عام 1957 للميلاد حيث وقعت تلك الهجرة الكبرى بأرض القعدة التي ذهب ضحيتها العديد من أبنائها في مداهمة كبرى عمدت بها فرنسا إلى تصفية جميع العناصر التي لها صلة بجيش التحرير الوطني، وكان يوما مشهودا يتذكره العام والخاص من أبناء هذه القرى فيما قامت به فرنسا من تقتيل جماعي وتعذيب وتشريد، فانتقل السيد الحاج البشير بن عفان بن هارماس بن عبد القادر إلى وهران وبقي هذا شأنه حتى يوم وفاته رحمه الله من عام 1998 من شهر جويلية رحمه الله وطيب ثراه، وهو من مواليد قرية ارمايسية من عام 1926 للميلاد بأرض القعدة من بادية امهاجة، نسبة إلى أحد رجالاتها الذين شهد لهم بالخير والفلاح المعروفة بأولاد سيدي الفريح الكبار،

أعود فأقول إن استيطانهم بتلك الأرض المعروفة بوادي الشرفة أورثتهم هذه التسمية وأنهم في حقيقة الأمر بعيدون عن ذلك النسب إلا أن ابن سيدي محمد بن ابراهيم الشيخ الجليل سيدي الفريح قام بهجرة معاكسة إلى القرية الحالية، التي أخذت اسمه علما لها،

وقد عرف أولاد سيدي الفريح باسم آخر ينبعث من طبيعة حبهم للعلم وشدة تعبدهم باسم "المرابطين"[11] ويقصد بهم أولئك الذين لا يفارقون المسجد في عبادة أو تعليم أو تحفيظ للقرآن الكريم أو إقامة الحلقات العلمية والدينية،

11 كتاب الإعلام بمن حل وهران من الأعلام ص: 58 وما بعدها. دار الغرب للنشر والتوزيع وهران 2002 للميلاد.

وهذه فطنة منهم عندما أطلقوا على القرية اسم جدهم الأقرب ليظمنوا لأنفسهم المستقبل،

ففي هذا الجو الحافل بالطهر والقدسية والعلم والفقه والتربية بالإضافة إلى الحفظ والقراءة والكتابة ظهر الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله وتلقى علومه منذ طفولته ولا نستبعد أو نستغرب أن يكون معلموه الأوائل من أبناء أسرته وكان والده الشيخ المولود بن مصطفى الذي جعل يحفظه أجزاء من القرآن الكريم لا سيما الأجزاء الأخيرة من قصار السور،

ثم لما كبر قليل[12]ا جعل يختلف مع بعض أترابه على فقهاء القرية يأخذ عنهم بعض الدروس الفقهية، لكن بقي والده هو ملاذه ومرجعه في شرح وتفسير ما يشكل عليه حتى حفظ القرآن وله من العمر تسع سنوات، فلما شب عن الطوق رحل في طلب العلم، وسندرس وصفه لذلك، وما لقي من تعب وعنت في سبيل تطوير نفسه، واتخذ الشيخ الطيب المهاجي من وهران مقاما له لأنه أخذ بنصيحته الإمام مالك للشافعي بأن العالم أو طالب العلم أفضل له أن يسكن الحاضرة لأنها أثبت لعلمه واصلح لتطوره من الريف والبادية، فسكن وهران رغم ما أبداه من ملاحظات على مجتمعها وما كان الناس عليه من ابتعاد عن الدين وأوامره وتعاليمه. وقد قال في ذلك[13]:

---

12 أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 82.

13 أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 83 – 84.

" قد كنت قدمت أني بعد اختياري سكني الحاضرة استوطنت بلدة وهران واتخذتها دار إقامة لي ولكنها ساءت مستقرا ومقاما لأن سكانها إلا من رحم الله لا خلاق لهم ولا مروءة ولا حياء وكأن الشاعر الحكيم يعنيهم بقوله:

يأتي الفواحش عندهـــم معروفة

ولديهـــم ترك الجميل جميـل

يتبعون الأوهام ويؤمنون بالخرافات ويتشبثون بالعوائد القبيحة والتقاليد الممقوتة، وكلهم يعتقدون أن ما هم عليه من الباطل يقربهم إلى الله زلفى وينجيهم من أهوال القيامة يوم الفزع الأكبر وإذا نصح لهم ناصح أو أرشدهم مرشد اعتبروه الخصم الألد والعدو المبين ورموه بالزندقة والإلحاد، كما أنهم إذا قال لهم قائل من أين لكم هذا قالوا هو من العلوم الباطنية التي فتح بها لأشياخنا لا تعلمها أنت ولا من هو محجوب عن الأسرار مثلك.

وهكذا زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل أصلح الله حالنا وحالهم والمسلمين أجمعين، فإن قلت إذا كان سكان بلدة وهران بهذه المثابة فبم طاب لك استيطانها. قلت نعم استوطنتها ولكن لا رغبة لي فيها ولا لمحبة أهلها وإنما اخترتها دار إقامة لي من أجل أمر واحد هو قربها من أرض قومي ومقر أسلافي ومقابر آبائي وأضرحة أجدادي، فأنا أحب أن أسكن قريبا لأكون دائما على اتصال بعشيرتي وذوي قرابتي إذ لم يكن بينهم وبين مدينة وهران سوى خمسين ميلا جنوبا".

ومن جهة ثانية رأى الشيخ رحمه الله في سكنه وهران التي تمثل عاصمة الغرب الجزائري، واجبا وطنيا جهاديا، يتوجب عليه القيام بعمل ما، حتى يساهم في إيقاظ الفضيلة بين المسلمين والدعوة إلى إصلاح المجتمع الذي أصابه التفكك والانحلال، جراء العادات والتقاليد التي حاول الاستعمار إدخالها إلى أناسي وهران، إيمانا منه بطمس الهوية العربية الإسلامية، والعمل على فك جذورها وامتصاص عاداتها وتقاليدها وأعرافها التي هي جزء من مقوماتها الأساسية للشخصية الجزائرية الوطنية، في بعدها العربي الإسلامي.

فهو علم من أعلام وهران، كانت أيامه فيها عبارة عن جهاد متواصل في العمل على إحياء علوم الدين وكشفا عن مناهج الفقهاء والأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح.

فمدرسته الدينية للتعليم والوعظ والإرشاد بالمدينة الجديدة لا تزال معالمها قائمة إلى اليوم، والتي كانت منطلقا له للدعوة إلى معالجة الشؤون الاجتماعية منها والدينية، وبث الروح الوطنية في الحث على الجهاد ومقارعة العدو الخصم الدود لهذه الأمة، فهو علامة عصره بوهران وإمام وقته في التاريخ والفقه واللغة وعلوم الشريعة وأصول الدين، هكذا.

وقد منحته سيرته الجهادية على الجهل والكفر والإلحاد طابع الشعبية والتعبير، لأن حسه الاجتماعي وتوجهه الملتزم كان أقوى وأشد، فجاءت أيامه حافلة بما يغني جماهيره المتعطشة للعلم، من تاريخ وأدب ولغة

وشريعة وعلوم الدين، فلم يبخل على جمهوره طيلة عهود من الزمن بكل ما يرفع من شأنه أو مستواه.

ولن نغفل دوره في العمل الثوري والوطني الذي كان يضطلع به في تكريس روح الأمة وتوجيه أنظار الجماهير نحو قضاياهم المصيرية في الاستقلال والتحرر.

كما أنه كان وجد في وهران وأهاليها تعاطف وتفاهم يمتد عبر الأجيال البعيدة منذ عشرات السنين، بفضل ما عرف عن أسرته امهاجة وعن الدور الذي لعبه رجالاتها طيلة عهود من الزمن، فكان فيهم القاضي والمفتي وصاحب الجباية، فكانوا صورة مشرفة للحياة الإسلامية المثالية في ابتغاء الدار الآخرة مع قيامهم على أمور الحياة الدنيا.

وقد لخص الشيخ رحمه الله تاريخ وهران منذ تأسيسها حتى الاحتلال الفرنسي- في سطور، تلخيصا دقيقا مبنيا على مصادر ومراجع، ذات الاختصاص المباشر في تجسيد واقع متصور لها وبأبعاد واضحة، فقال[14] :

" . . وهران نبتها مغراوة بإذن من مواليهم الأمويين أمراء الأندلس، ومعلوم أن الدولة الأموية بالأندلس أسست سنة ثمانين وثلاثين ومائة، على يد عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل، والذي كان أبو جعفر المنصور العباسي إذا ذكر عنده يقول ذلك سقر قريش، فكلام أبي راس لا يتلاءم مع قول صاحب تحفة الزائر اختطها ملوك مغراوة قبل الإسلام، ولعل ما قاله أبو راس هو الأصح

[14] أنفس الذخائر ص: 82، 83.

إن لم نقل المتعين، فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة أبي عبد الله الوهراني، أنها أسست سنة تسعين من القرن الثاني للهجرة، ولم تزل وهران بعد الفتح الإسلامي يتداولها ملوك الإسلام، وفي القرن الرابع بنى جامعها الكبير بلكين بن زيري من ملوك صنهاجة، وهذا الجامع العظيم حولته الحكومة الفرنسية إلى ثكنة عسكرية، وأسكنت بعض فرق جيشها بيوت المدرسة المتصلة بصحنه، ورغم ما وقع من التغيير لهذا المعهد الإسلامي والعبث بهذا الأثر الديني على يد الاستعمار لا يزال محرابه ومناره قائمين على أصلها، وامتدت العمارة الإسلامية بمدينة وهران قرنا بعد قرن إلى سنة خمس عشرة وتسعمائة، ثم أخذتها دولة اسبانيا من يد آخر ملوك بني زيان، وضيقت على المسلمين وسامتهم سوء العذاب، هذه الدولة الإسبانية الظالمة الغاشمة.

ولا زال العلماء إذ ذاك يستنجدون أتراك الجزائر ويحرضونهم نثرا ونظما على غزو الأسبان بوهران، فكان الأتراك من حين لآخر يوجهون جيوشهم لقتال الأسبان بوهران فيتعصى عليهم فتحها إلى أن تولى أمر الجزائر محمد باشا المعروف بالمجاهد وذلك سنة تسع وسبعين ومائة وألف، فأمر بغزو وهران من جديد حتى فتحها سنة ست من القرن الثالث عشر- وبقيت بيد الأتراك أخذتها الدولة الفرنسية وتسلمت زمامها من يد حسين باي في تاسع رجب سنة ست وأربعين ومائتين وألف بعد ستة أشهر من دخول الجزائر، وتلك الأيام نداولها بين الناس ".

هذا ما أبداه الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله من ملاحظات حول تاريخ وهران وسكانها وما هم عليه من عادات وتقاليد لن يرضى عنها لأنها تخالف الشريعة الإسلامية ومبادئ الدين. وكانت هذه الظاهرة قد عمت كل المدن الكبرى نتيجة الاختلاط الذي عمدت إليه فرنسا إيمانا منها في طمس الهوية الجزائرية المتمثل في الحفاظ على لغتها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها من جهة وغلق الكتاتيب القرآنية والمدارس الدينية وكل ما من شأنه تعليم اللغة العربية من جهة ثانية، حتى يبتعد الناس عن قوميتهم العربية الإسلامية وهذه هي غاية الاستعمار.

وقد لقي من أجل إصال علمه أو طلبه الكثير من العنت والاضطهاد على أيدي السلطة الغاشمة المحتلة يومئذ وذلك بسبب القوانين الجائرة التي استنتها تلك السلطة لتقييد وسائل نشر الدين وتحديد مواضع العلم والتعليم والقراءة، لكن الشيخ ظل يجاهد إلى أن استطاع بعد ذلك أن يحصل على بعض التصاريح التي تسمح له بافتتاح مجلسه الذي يتصدر فيه الفتوى والتعليم[15]، والقراءة وقد قرب إلى أذهاننا تلك الصورة التي كان عليها الاستعمار في محاربته للتعليم وللعلم والعلماء.

بقوله:

" وبعد التسويف مدة وبعد عراقيل وصعوبات تحمل على اليأس حصلت على رخصة ضيقة مقيدة بالإذن في قراءة فنون خاصة مع الحجر في باقيها، ولكني لم أقتصر في التعليم على ما حددته الرخصة بل كنت

[15] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 84.

أتعداه إلى قراءة ما أشاء وفي بعض الأوقات يأتي على حين غفلة مفتش من طرف الحكومة يراقب سير التعليم ويسأل عن العمل بمقتضى- ما في الرخصة مع التنبيه على منع جلب الكتب التي حجر القانون الفرنسي- على حرية التعليم وحرية الرأي وحرية الصحافة وسائر الحريات التي يحق لكل أمة حتى المستعمرة أن تتمتع بها إلا أن الاستعمار الفرنسي- لا يقيم لمستعمراته وزنا ولا يرى أن لها حقا ولو أثبته لها الشرع والعقل والمنطق، ثم لما حصلت على تلك الرخصة التي هي في الواقع منع لا ترخيص استقبلت إلقاء الدروس بجد واجتهاد[16]."

وكان يخلفه في إلقاء الدروس ويعاونه ويجلس مجلسه من بعده أخوه الشيخ العلامة عبد القادر رحمه الله. وقد وصفه بقوله[17]

"وكان أخي وشقيقي العلامة الشيخ عبد القادر رحمه الله يقرأ بعد فراغي من الدروس ما يختاره الطلبة ويقترحونه من المتون وله رحمه الله اقتدار على الإلقاء بأساليب حكيمة حسب ما يقتضيه حال المتعلمين حتى أنهم كانوا يستحسنون دروسه ويرجحونها على دروسي، ولولا اشتغاله بالتجارة لأفاد كثيرا[18]).

وقد ذكر لهذا الشيخ رحمه الله مواقف وطنية، ومواعظ حسنة فضلا عن دروسه في الدرس والتحليل، التي كان يشارك بها مع أخيه الشيخ الطيب المهاجي، وكان نابغة في الحفظ والإدراك، وصاحب رأي في

---

16 أنفس الذخائر ص: 80.

17 أنفس الذخائر ص: 80.

18) كتاب الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر، ص 290، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، 1418هـ 1998 مـ

استنباط الأحكام، وفي فهم بعض النصوص الفقهية والدينية، وقد أشاد به علماء عصره كثيرا واعتبروه نادرة زمانهم في العلوم اللغوية والفقهية.

وكان رحمه الله من الذين يفهمون الأصول الكبرى التي تقوم عليها الحياة بتياراتها الدينية والتاريخية والفكرية العميقة.

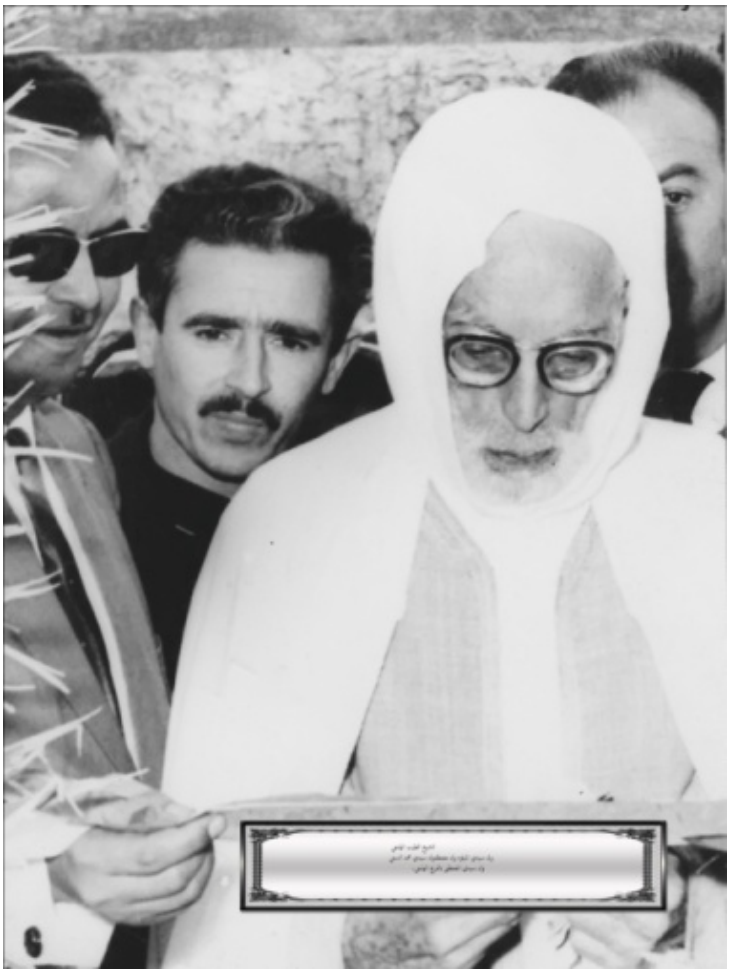

الشيخ الطيب المهاجي
بعد عودته من أداء فريضة الحج من عام 1964 للميلاد
رحمه الله

آفاقه الواسعة

من البديهي أن الإنسان لا يمكن أن يقدم للناس نتاجه وعلمه وهو مغلق على نفسه دون الاتصال بالآخرين سواء في داخل الوطن أو في المكتبة نفسها أو دار العلم الذي يعمل فيه،

فلما توسعت صلات العالم بهذه المراكز التي ذكرناها كان نتاجه العلمي أوسع،

أما إذا كان للعالم رحلة من أجل العلم أو الاطلاع أو السياحة فإن أفكار ذلك العالم تكون أوسع وتناوله لموضوعاته يكون أعمق،

وهكذا نجد أن الشيخ الطيب المهاجي قد تميز بهذا الجانب تمييزا واضحا أثر فيه بسبب رحلاته التي أشار إليها في كتابه ففي بدايتها كانت رحلته إلى تونس وعندما عاد التقى بابن باديس في قسنطينة ودار بينهما حديث حول التوحيد، وقد وصف لنا الشيخ الطيب المهاجي هذا اللقاء الأخوي بينه

وبين ابن باديس بقوله [19]"وقد سنحت الفرصة بزيارة الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله فاغتنمتها وزرته بمدرسته العامرة بالعلم وبطلابه، ولما رآني تهيأ للقيام وتأهب لقطع الدرس فأبيت ذلك وخلفت فأبر قسمي وأقبل على الدرس وبعد الفراغ منه قام فصافحني وعانقني وأقبل علي يسألني أحوالي وقال، فاجأتنا بهذه المقابلة السارة التي ما كانت في الوقت الحاضر تخطر لنا على بال وأنشد:

ولكنهـــم جاءوا ولم أدر بغتة

وأعظم شيء حين يفجؤك البغت

إلى قوله[20]ولما بحثت مع الشيخ ابن باديس هذا المبحث استحسنه وقال: "هذا هو الذي ينبغي التعويل عليه"،

ولقد أحب ابن باديس الشيخ الطيب المهاجي بتوجيهه لهذه القضية، كما أحب فيه مواقف أخرى ذكرها في أبحاثه التي كان ينشرها في جريدة الشهاب، فكان يثني على الشيخ في الجريدة لمواقفه الصائبة وتصحيحه لبعض المسارات التي كانت تبدر من بعضهم عن طريق الخطأ"،

بقوله[21]" كنت مرة كاتبته ألفت نظره إلى خطأ ارتكبه سهوا في إحدى فتاويه التي كان ينشرها بمجلة الشهاب فبادر إلى الإعلان في نفس المجلة بأنه رجع عما أفتى به خطأ في نازلة كذا وفلان المهاجي هو الذي ألفت نظري إلى الخطأ وإني بكل ارتياح أتلقى ما يرد علي من التنبيهات

---

[19] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 90.

[20] المصدر نفسه، ص 91.

[21] المصدر نفسه، ص 92.

والانتقادات النزيهة متى قصد صاحبها تحقيق الحق والرد إلى الصواب كالشيخ الطيب المهاجي"،

وقد سجله لنا الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله اعترافا منه بسماحة الشيخ عبد الحميد بن باديس وتقبله لمثل هذه الردود مادامت انتقادات وتنبيهات نزيهة لا غاية من ورائها،

وذكر من بين رحلاته أنه زار المغرب سنة 1364 هـ بدعوة من أحد علماء فاس فاستضافه في داره وأطلع في ذلك على معالم فاس الدينية ومدارسها وحلقات الذكر فيها وقدم لنا تقريرا مسهبا عن عادة شعائرية يؤدونها في كل عام عند ضريح مولاي ادريس، فوصف ترديداتهم وما ينحرونه في تلك الساعات، فلم يرض عن ذلك لكنه أشار إلى كثير من الممارسة الدينية الطيبة مثل ختمهم لصحيح البخاري وغير وقد نقل لنا الشيخ الطيب المهاجي مشهد هذا الاحتفال الذي جرى في يوم ذكرى مولاي ادريس بفاس وما جرى له من مواقف وأحداث أثناء إقامته بفاس بقوله: "وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف زرت المغرب بدعوة من بعض أصدقائي بحاضرة فاس فنزلت بداره وصرت أثناء إقامتي أتجول في شوارع البلدة وأقف على آثارها القديمة ومساجدها العتيقة، وأطوف على نعاهدها العلمية ومعالمها الصناعية"،

فقال: " ثم إني صادفت أيام وجودي بمدينة فاس إقامة مهرجان كبير يطلق عليه المغاربة اسم مولاي ادريس، يحتشد الجماهير من كل الطوائف وسائر الطبقات بعدما يأتون من كل حدب وصوب بأيام قلب موعد

المهرجان فتكتض بهم الشوارع وتضيق الطرقات ويتعذر المرور بالحارات، فإذا حان موعد زيارة تلك الجموع لضريح مولاي ادريس تراهم يحشرون ضحى مختلطين رجالا ونساء حافين من حول مدفن هذا الإمام الأعظم ناصر السنة ومحييها وخاذل البدعة ومميتها، وهم يطبلون ويزمرون رافعين أصواتهم بألفاظ مهملة لا يفهم لها معنى سوى قولهم يا مولاي ادريس أرض عنا وأعنا وكن دائما معنا، ثم يقولون (الشاي لله مولاي ادرس) ويدوم هذا المنظر المؤسف والمشهد المؤلم من الضحى إلى الساعة العاشرة صباحا أو قبلها بقليل أو بعدها كذلك يساق عدد من الثيران المعدة لمثل هذا اليوم من كل سنة فتذبح على قبر الضريح المقدسة وتفرق لحومها على بيوتات أدارسة فاس، ولا تسأل ازدحام الناس على دم تلك الذبائح وفرثها[22]،

وهذا الذي ذكرته لك أيها القارئ الكريم قليل من كثير، وكله يقع في بلد طيب به كلية عملية هي من أكبر الكليات في العالم، وأقدمها تاريخا وأكثرها إنفاقا للعلوم وأنفعها للعالم الإسلامي ..."

إلى أن يقول:

"هذا ومن العوائد المعمول بها دائما من قديم في يوم هذا المهرجان السنوي ختم صحيح البخاري، ولعل هذه العادة مستحسنة أو هي أخف من غيرها."

---

22 أنفس الذخائر ص: 94.

وبالمناسبة فإن الشيخ يورد لنا تقاليد الختمة في وهران واصفا مجالس الطعام وما يقدمونه بعد الانتهاء من التلاوة والذكر، وهي عادة عربية قديمة، تدل بتفاصيلها الوافية عن تاريخ وهران العربي الإسلامي بآثاره البعيدة منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم من عام 2002 للميلاد، حيث لا زال أهلها متمسكين بهذه العادة، حيث يرسم التلميذ صورة تدل على آثار إسلامية على اللوح المخصص لتعليم القرآن للصبية في الكتاتيب القرآنية بعد حفظه لعدد من السور أو الأحزاب ويطوف بها عند الأهل والأقارب فرحا وسرورا، بينما تقوم العائلة بذبح الذبائح وإطعام الطعام للطلبة المسافرين والفقراء والمساكين من أبناء الحي أو الجهة التي تحيط بالمسجد، وهي عادة تعم جميع الوطن بمدنه وقراه ومداشره وأريافه، وهي في نظرنا تعد رمزا كبيرا لرفع مكانة القرآن الكريم وأهله،

هذا ولم نورد ضمن رحلاته رحلته إلى الشام عند أحد شيوخ الحديث، ورحلته إلى مكة، وإنما اقتصرنا على رحلاته العلمية في دعوة من الشيوخ العلماء لسبب علمي وسنذكر بقية الرحلات عند الحديث عن "الإجازة" و "الإذن"،

وكان الشيخ الطيب المهاجي في أثناء حديثه عن سيرته ورحلاته يتطرق إلى معانات الشعب الجزائري لا سيما في المرحلتين البارزتين من تاريخ العالم، المرحلة الأولى هي الحرب العالمية التي عانى منها الشعب وذلك

بسبب وقوف الجزائر إلى جانب فرنسا ضد ألمانيا وقد أفاض في الحديث عما أصاب الشعب الجزائري يومها من غبن وحيف فقال[23]

فقد جندت الحكومة الفرنسية العدد الكثير من الطلبة الذين هم بصدد مزاولة العلوم إذ ذاك، كما جندت من أبناء الأمة الجزائرية غير الطلبة مئات وآلافا وزجت بالجميع في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل فكانوا طعمة لنيران مدافع الألمان، ومن لم يلق منهم حتفه ولم يقض نحبه رجع إلى أهله ناقص يد أو رجل أو هما معا أو مفقود العين مشوه الخلقة، ثم هنا يحق لنا أن نتساءل ماذا كان جزاء الأمة الجزائرية التي بكفاح أبنائها ونضال أفلاذ أكبادها تغلبت فرنسا على عدوها الجبار،

كان جزاء تلك الأمة التي لم يكن لها من الأمر شيء وإنما عليه السمع والطاعة لما يرفضه الاستعمار ويلزمها إياه هو أن يزيد في إرهاقها والضغط عليها أكثر من ذي قبل فقد شددت الحكومة الفرنسية الرقابة على الاجتماعات وسائر الحركات وضيقت الخناق على الحرية الفردية وغير الفردية، فكل من أبدى نظريته أمام الرأي العام أو بث شكواه من ظلم أو حيف يعد في نظر الحكومة الفرنسية مشوشا مثيرا للفتنة، فتلقى عليه القبض وترمي به في أعماق السجون أو تنفيه إلى الأبد أو إلى مدة يفنى فيها أكثر عمره،

[23] الذخائر وأطيب المآثر، ص 85، 86.

ثم الحرب العالمية التي عانى منها الشعب أيضا بحيث كانت المواد الغذائية توزع بموجب البطاقة التموينية التي كانت هدفا للمحتالين وأصحاب الرشاوى. واصفا ذلك بقوله[24]:

"فاشتدت الضائقة وضربت أطنابها على القطر الجزائري بأكمله، وكادت المرافق الحيوية تفقد خصوصا المواد الغذائية حتى أنها لقلتها صارت توزع على السكان مرة في الأسبوع أو الشهر بواسطة أوراق متعددة بعدد أفراد العائلة لكل فرد ورقة بها اسمه وبأسفلها خاتم متصرف الحومة، ولا تسأل عما يروج من الرشوة بين أصحاب الأوراق والمتولين للتوزيع، فمن بذل رشوة يقدم على غيره ويأخذ نصيبه ومثله معه، لهذا ترى الناس يبذلون قصارى جهدهم في الإهداء لأجل إمالة متولي التفرقة وعطفه عليهم والضرورات تبيح المحظورات ويا ليتهم لو كانوا يأخذون كفايتهم يوميا لو كان هذا لخف الأمر وهانت المشقة، ولكنهم لم يأخذ الواحد منهم إلا شيئا تافها لا يسمن ولا يغني من جوع... "،

وأمام هذه الظروف القاسية ومتابعة سلطات الاحتلال الغاشمة وتطبيق التجنيد الإلزامي للشباب الجزائري لم يعد أمام الشيخ من حل سوى أن يغلق أبواب مدرسته، لكن الشيخ بعد ذلك عاد إلى فتحها وجلس ثانية إلى التدريس، لأن الحرب العالمية الثانية كانت قد انتهت وأن كثيرا من الشباب المجندين لها عادوا إلى أهليهم وإلى طلب العلم والتعليم،

[24] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 86.

وتخطر لي خاطرة أود أن أثبتها هنا لدى الشيخ رحمه الله من اهتمامه بالرحلات التي تتيح له فرصة الاتصال بالعلماء،

إن رحلات الشيخ الطيب المهاجي المتعددة إلى الأقطار العربية والأوساط الإسلامية أتاحت له فرصة ثمينة في الاطلاع على حفظه ومكنونه من العلم والرواية والإسناد، فلم يكن الشيخ وهو يرحل إلى موضع يريد أن يحصل منه على إذن أو إجازة بقدر ما كان يحاول أن يتعرف فيه على مقدار ما يحفظ ويتقن ويعلم من شؤون الدين والفقه واللغة، فكان دخوله إلى المساجد الكبيرة والجامعات الإسلامية، كالأزهر والقرويين والزيتونة وجامع الأمويين بسورية ـ دمشق ـ إنما لغرض اختبار تلك المعارف في نفسه حتى استطاع أن يتأكد ويوثق، مما يحفظ أو يروى، أو يشرح، أو يفسر أو يدرس، وظهر له جليا أنه لم يكن يسعى إلى الحصول على إجازة في علم بقدر ما كان يتوثق من نفسه، فتحققت لديه صحة ما يرى وما يعتقد، وعرف أنه إنما يأخذ هذه الإجازات والإذن ليس على سبيل الانتفاع والتصرف في ضوء تلك الإجازات، وإنما على سبيل التبرك بها والافتخار بالحصول عليها، فهي عبارة عن شهادات مضافة إلى ما عنده من علم وإجازة سواء حققها بنفسه أو تحققت لديه من شيوخه أو من ثقة الجمهور،

وكان في رحلاته رحمه الله تاجا من تيجان امهاجة في النسب والحسب، رفع رايتها في مشارق الأرض ومغاربها، إعلاء لكلمة الدين، ورفعا لرايته، وقد اقترن اسمه بوهران وظهر نجمه فيها، ونال من أهلها مهابة وإجلالا

وتقـديرا، بسـبب الاعتقـاد في كفايتـه العلميـة وتفوقـه في مجـال القـول والخطابة، والتربية والتكـوين، والدرس والتحصيل، والـوعظ والإرشـاد، رحم الله شيخنا.

قدراته وإبداعاته

يظل المرء جاهلا حق نفسه حتى يكتشف ما فيه من قدرات وإبداعات، فإن وقف على ذلك فقد أعطى لنفسه حقه وعرف الناس عنه ذلك، أما إذا بقي جاهلا حق نفسه فإن ما يمتلك من قدرات وإبداعات يبقى خافيا دون أن يعرف هو أو يعرفه الناس، وهذا ما يصدق على الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله عندما أخرج للناس جميع ما في نفسه من إبداع وقدرة عرفت فيه لأنه كان رحمه الله يتميز بأسلوب خاص به وهذه من دلائل علميته وقدرته الكتابية وشخصيته العلمية، فنحن نعلم كما يقول أحد الباحثين الغربيين أن الأسلوب هو الرجل، فكذلك الشيخ الطيب المهاجي تميز بأسلوب في الكتابة وتناول الموضوعات ورصف المعلومات الثقافية رصفا محكما، وإن كان الشيخ رحمه الله قد زاوج بين أسلوبية التقليد وبين المناهج المحدثة في عصره لا سيما أساليب القادة المفكرين في الصحافة العربية الإسلامية أمثال الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، ورفاع الطهطاوي، والشيخ جمال الدين الأفغاني، وآخرين ممن كان يقرأ لهم

ويتصل بهم إلا أن ديباجة الشيخ الطيب المهاجي كما نلاحظها في كتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" ناصعة ومشرقة بحيث يستطيع أن يقرأها طالب المدرسة في دراسته الأولى ويخرج منها بحصيلة طيبة من الفهم والإدراك مما يدل على أنه أزوج بين ثقافته العريقة وتأثره بالعصر الحديث، لهذا نجده يعمد إلى السجع في الكتاب وظل اعتماده عليه حتى آخر صفحة منه، لكنه كان في الوقت نفسه يتركه ليريح القارئ أو نفسه، ثم يعود ثانية إليه فكأنه يتعمد أن ينتقل بالقارئ بين السجع والاسترسال، فإذا أراد تأكيد الفكرة وترسيخها في ذهن السامع أو القارئ عاد إلى السجع لا سيما أن الفكرة المسجوعة لها وقع في النفس أشد من الفكرة المرسلة مثلها في ذلك مثل الشعر، فهو أثبت في الذهن من النثر، والسجع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر، فمن أمثلته في السجع ابتداء الكلام عن نفسه مصورا قلمه وعلمه.

فيقول[25]:

"أما بعد فيقول الفقير إلى مولاه، الغني به عما سواه، محمد الطيب المهاجي، جعله الله يوم الفزع الأكبر من الفريق الناجي، إن من دواعي الالتفات إلى ما مضى- وفات، ومن بواعث النظر في عواقب ما هو مستقبل آت، أن يتولى الشباب مدبرا، ويقبل الهرم نذيرا ومذكرا، وإني جاوزت في هذه الحياة الدنيا الفانية السبعين سنة التي يقول عنها الكثير والجم الغفير، أنها عند الجمهور مدة التعمير الكافية بمفردها عن الشهود في

25 أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 07

حكم الحاكم بموت المفقود ترجيحا للغالب على غير الغالب، إذ من لا يجاوز السبعين أكثر بكثير ممن يجاوزها، وقد كانت العرب تسميها دقاقة الأعناق، لما بلغت من العمر المدة المذكورة، وصارت المستلذات مهجورة وأصبح الأمل في تفسيح الأجل ضئيلا، بل كاد يكون مستحيلا، التفت إلى الماضي فألفيته ذهب سدى، وبدون جدوى قد أفنيته فيما لا يعني ولا ينفع شيئا، ولا يغني فحاولت بعد أن وهن العظم مني تلافي ما فات بإصلاح ما هو آت، فأعجزني الكبر وأقعدني ضعف القوة عن القيام بالمفروض، فضلا عن المسنون والمندوب، فأحببت والحالة هذه أن أترك بين مخلفاتي أثرا لا يورث مني ولا يتحول نفعه عني على أمل أن يقف عليه واقف على سبيل الصدفة أو بقصد الإطلاع على محوياته، وعلى ما تضمنه فحوى مجملاته ومفصلاته، فقد يجد ما يستحسنه أو يتصوبه، أو على الأقل يرى أنه لا بأس به فيذكرني بخير ويدعو لي بما شاء الله أن يدعو به، وحينئذ أكون قد خلفت أثرا من الآثار الحسنة التي تسبب لأصحابها التعطف والترحم من الواقف عليها والناظر إليها بعين القبول ..."

لقد ربط الشيخ رحمه الله بين الأفكار الغزيرة والتأملات الكثيرة والمعان الواسعة والاستشهاد والأمثلة ببعضها ربطا محكما فجاءت متسلسلة منتظمة بحيث جعل من كتابه سلكا ومن هذه الأفكار حبات فنظمها نظما جميلا محكما ورفعها عقدا ليزين به صدور قارئه.

لقد حمل الشيخ كتابه أكداسا من الثقافات العميقة التي نتمرس بها، والتي كثيرا ما تترك في طرائق تفكيرنا وفي أساليب تعبيرنا أوضح الأثر، وجملة من الموعظة الحسنة بأسلوب سجعي وشعري ونثري معا بحيث أخذ يستعرض ما في مخزونه من الحفظ وفي أعماقه من الثقافة، فاتخذ من الكتاب وسيلة نبيلة لإيصال هذه المعارف إلى قارئه، كما اتخذه غاية للوعظ والإرشاد والتوجيه والتعليم وفق أسس التربية الإسلامية القويمة.

ويزاوج الشيخ الطيب المهاجي بين أسلوبين الديني واللغوي، فيدمج بينهما ويخرج بفكرة جديدة تؤدي الغرضين ويترك للقارئ الاختيار، فمن شاء أخذها على وجهها الديني، ومن شاء أخذها على وجهها اللغوي، ومن شاء أخذها على الوجهين[26]ومن أمثلة ذلك قوله:

"غير أن من بين تلك العلوم ما يجب تعلمه وجوبا عينيا وما يجب كفاية، فالواجب العيني ما يتوقف عليه تصحيح العقيدة وصحة العبادة والمعاملة، والواجب غير العيني ما يكفي في القيام به بين المسلمين جماعات أو أفراد تؤهلهم مواهبهم لآدائه".

وقوله[27]:

" ومتى استحكمت روابط المحبة بين الفقراء والأغنياء فإن المجتمع بكل طبقاته يعيش في أمن عام وهدوء شامل، وهذا غاية ما تتمناه الشعوب وتعمل دائما من أجله".

---

[26] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 09.

[27] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 11 .

وقوله أيضا "فالحق أن الزكاة رباط إسلامي متين ربطت به وحدة المسلمين وأوثق بع عرى اتحادهم وكان أكبر علاقة يتعلق بها فقيرهم بغنيهم وتؤلف بين قلوبهم ولا يكون للضغينة والحقد أثر في قلوبهم فسبحان الإله الحكيم جعل أحكام شرائعه مبنية على مراعاة مصالح المبدي والمعاد وتلك المراعاة هي المعبر عنها بحكمة التشريع".

ومن أمثلته في استرساله أو عزوفه عن السجع قوله:

"إن من ينظر إلى مبادئ هذا الدين الحنيف ويقف على تعاليمه السامية يجدها دائما تحت تعاطي أسباب التكسب وتؤكد على مرور الزمان، طلب تنمية المال، كما يجدها تسن قوانين المعاملة وتبادل المنافع وتحتاط لضمان الحقوق المالية وغير المالية، وحتى أن تلك التعاليم العالية، تمنع كل معاملة اشتملت على غرر أو غبن أو جهل عوض، أو احتوت على ما يؤدي إلى النزاع أو يفضي إلى فتح باب الخصام بين المتعاملين".

واسترساله أكثر من سجعه فكأنه أخذ بأساليب العرب الحديثة أكثر من أساليب العلماء المتقدمين، لكنه بقي تحت مظلة أفكارهم الفقهية والشرعية متخذا السجع كما ذكرنا عندما يريد تثبيت القاعدة أو الفكرة أو المطلوب تثبيته وإصاله إلى ذهن القارئ.

والشيخ في أسلوبه يعمل على طريقة المشايخ يستطرد في أفكاره ومعانيه وهي طريقة لم يبتعد عنها كتاب الأساليب الأدبية حتى عرفت لدى الأدباء الكبار أمثال الجاحظ صاحب طريقة الاستطراد المعلوفة.

أما شيخنا الطيب المهاجي رحمه الله فمن أمثلة استطراده قوله:[28]

"فالزكاة ركن مالي، وفرض اجتماعي طريقه المواساة والعطف على الإنسانية مع حفظ النظام واستتباب الأمن، فمهما أدى الغني زكاة ماله ودفعها لمستحقها، فإنه يكون قد قام بواجب إنساني وساهم في مشروع خيري دفع به عن نفسه رذيلة البخل وأصبح من جانب الفقراء في أمن على شخصيته من الاغتيال وعلى ماله من النهب والسرقة، إذ بالطبع أن الفقير عندما يرى عطف الغني عليه ومساعدته على تخفيف ألم فقره يتأثر بذلك وبحب الغني، وتزول من قلبه الأحقاد والضغائن لأن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها".

وهكذا يبقى مع استرساله حتى يأتي على كل ما في ذهنه من معاني في هذا الصدد الذي هو فيه.

ومن الأمثلة البارزة على استطراده حديثه في (المقصد الأول) عن مبدأ حياته وسيرته، فحملته الأحداث إلى أن يستطرد في تاريخ قبيلة بني عامر وما جرى عليها من أحداث وعن رحلتها إلى المغرب، واصطدامها بأمير مراكش بحيث أنسته هذه الإصطدامات أن يتحدث عن نفسه ونشأته وولادته[29]

---

(1) أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 09.

[28] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 11.

[29] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 24 – 25 – 26 .

والنتيجة التي نخرج منها في استرساله واستطراده وسجعه وأسلوبه أنه يعد من قافلة العلماء الشيوخ الأزهريين وغير الأزهريين ممن ظهروا في أوائل القرن العشرين وتتلمذ عليهم وجند نفسه لأفكارهم فظهرت ثقافاتهم وعلومهم جلية في كتاباته، فهو ممن تابعهم وسار على منوالهم، قد ذكرنا أسماء بعضهم من الأعلام، ولهذا يظهر الشيخ مثل أولئك الأعلام، لا سيما الشيخ محمد عبد عبده والشيخ رضا محمد الطهطاوي ما يجعله محسوبا في كتابه مصلحا اجتماعيا أو داعية، لكنه اكتفى بمحاضراته وكتابه ولو فعل ذلك لكان من المصلحين المشهورين الآن ممن يشار إليهم بالبنان.

ولهذا نحن نفسر نظرته إلى المرأة نظرة عصرية متقدمة ملتزمة بإطار الإسلام على أنه متأثر برجال الإصلاح ودعاة المرأة وإصلاح شأنها ليس على أسلوب الغربيين وإنما وفق ما أوردته التوصيات والنصوص الإسلامية فقال[30]:

" وبالجملة فالإسلام بعد محافظته على شرف المرأة وصيانة كرامتها منحها من الحقوق ما لم يمنحها سواه لا من الأديان السماوية ولا من القوانين الوضعية.

فقد جعلها تساوي الرجل في التكاليف الشرعية، وفي التصرفات المالية وغير المالية، وفي حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير وسائر مشاهد الخير بشرط أمن الفتنة وعدم مخالطة الرجال، كما جعل لها أيضا بمقتضى عقد الزوجية حقوقا على الزوج تحتفظ بها مادامت في عصمته".

---

[30] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 16 .

وقد كانت مشكلة المرأة من مشكلات العصور يومئذ ولهذا تناولها تناولا مستفيظا، فطرح أفكارا أثبتت الأيام صحتها الآن بينما جهر بها شيخنا الطيب المهاجي قبل أكثر من أربعين عاما عندما كانت الدعوة إلى مناصرة المرأة ومنحها الحقوق المشروعة وغير المشروعة في أوج قمتها، بحيث بلغت درجة من التطرف والمبالغة والخروج على الدين، فكانت أفكار الشيخ متوازنة بحيث نسترجعها الآن فنجدها تلائم ذلك العصر- وتلائم العصر- الحاضر أيضا مما يدل على صحتها وواقعيتها ومطابقتها للشرع والإسلام وهذا نص منقول من كتابه في بعض ما قاله في المرأة:

"استدراك" - فاتني التعرض إلى الكلام على بعض ما يتعلق بالمرأة أثناء البحث السابق المتعلق بما تضمنته آية الدين المذكورة، وكان مما تضمنته مقارنة المرأة للرجل في تجمل الشهادة فتلافيت ما فاتني، وذكرت بعض ما يتعلق بالمرأة ليست متأهلة للتمتع بما يتمتع به الرجل من الحقوق الإنسانية، قال الله تعالى في غضون آية الدين:

"واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء" الآية.

"فهذا النص القرآني القطعي، صريح في أن المرأة أهل للشهادة تحملا وأداء، وإنها ليست أحط من الرجل في درجة العدالة، وفي سائر الكمالات الإنسانية، كما أنها على قدم المساواة للرجل في الاستقلال بالتصرف المالي وغير المالي، فقد خولها الإسلام حق النظر في أمر نفسها، ومنحها الحرية

التامة في أن تختار من شاءت من الرجال زوجا لها بشرط الكفاءة، كما جعلها الإسلام مستقلة في تقدير ما ترضى به من الصداق وفي إبراء الزوج مما فرضت من صداق أو شرطت من شروط بدون توقف على وليها مهما كانت رشيدة غير محجور عليها". قال الله تعالى:

" وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا" سورة النساء. وقال جل ذكره في سورة البقرة:

" وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو عفو الذي بيده عقدة النكاح..".

أي، إلا أن تعفو المطلقات الرشيدات أو يعفو أولياء القاصرات، وقال تعالى أيضا في نفس السورة:

"ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به..".

إلى أن يقول:[31]

"وهكذا نجد الدين الإسلامي يتوسع في حقوق المرأة ويلحقها بالرجل في كل النواحي الحيوية ويبوئها منزلة لا تشعر معها بأدنى حيف أو هضم حق فسماحة الإسلام للمرأة بما ذكرنا وبغيره من الحقوق هو أقصى ما يتصور منحه مما يحفظ على المرأة شرفها وكرامتها ومالها من الواجبات بحيث تعيش محترمة تتمتع بسمعة طيبة بين الأوساط".

[31] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 16

ويعتمد الشيخ المهاجي في أسلوبه على نقول منقولة من كتب الأدب والأمثال العربية ويتخذ منها قاعدة لتثبيت فكرة كما ورد في قوله: "اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ولدنياك كأنك تعيش أبدا" وقد عزا ذلك إلى بعض السلف وإن كانت المقولة تعزى إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكن قوله السلف ينهي مسألة الاختلاف في إسناد القول، ولا يكتفي الشيخ بإيراد النصوص المتعددة للحادثة الواحدة يستمدها من أكثر من مصدر وإنما يلجأ إلى عقد موازنة وإجراء مقارنة بين نصوص المصادر المختلفة ليتوصل إلى الحقيقة التي تستقر عليها نفسه أو منهجه التوفيقي أو نظرته العلمية.

ولم يهمل الشيخ الطيب المهاجي الأسلوب الفلسفي ضمن إطار الفكر الإسلامي ومصطلحات المناطقة وحتى في معالجة بعض معاني التفاسير، وذلك مثل تعرضه للمصطلحات الفلسفية يوردها عرضا في أثناء حديثه لكنها توحي بعمق وتفهم واستقصاء مثل قوله[32]:

"ذلك لأن الإسلام دين كافل لسعادة الدارين وحافظ الأنظمة صالح المبدي والمعاد، نظر إلى الآخرة فأعطاها ما تستحق، ونظرا إلى الحياة الدنيا فضبط أحوالها وهيأ أسباب الحصول عليها، ووجه إليها من العناية فوق ما تستحق".

وهي من ألفاظ المناطقة والفلاسفة و المتكلمين الإسلاميين.

---

[32] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 16 .

وقد يلجأ إلى إضافات جديدة على المفسرين فنجده أحيانا يفسر الآية القرآنية تفسيرا اجتماعيا لكنه يبقى ملتزما بتفاسير المتقدمين ، كما في قوله[33]

"ومتى استحكمت روابط المحبة بين الفقراء والأغنياء فإن المجتمع بكل طبقاته يعيش في أمن عام وهدوء شامل وهذه غاية ما تتمناه الشعوب وتعمل دائما من أجله".

فتلاحظه ينظر إلى الآية من زاوية أخرى مضيفا إلى تفسيراتها قولا جديدا وشيئا يلائم العصر لم يسبقه إليه مفسر.

وقد حاول الشيخ في أسلوبه المتين أن يتصدى لأعداء الإسلام ويرد عليهم سواء كان ذلك على صعيد التاريخ أو على مستوى العصر الحاضر وذلك قوله:[34]

" الأمر الذي برهن ويبرهن على بطلان ما ينسب للإسلام أعداؤه زورا من أنه دين أخروي فقط إن من ينظر إلى مبادئ هذا الدين الحنيف ويقف على تعاليمه السامية يجدها دائما تحث على تعاطي أسباب التكسب وتؤكد على مرور الزمان طلب تنمية المال، كما يجدها تسن قوانين المعاملة وتبادل المنافع وتحتاط لضمان الحقوق المالية وغير المالية، حتى أن تلك التعاليم العالية، تمنع كل معاملة اشتملت على غرر أو غبن أو جهل عوض، أو احتوت على ما يؤدي إلى فتح باب الخصام بين المتعاملين".

---

[33] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 11 .

[34] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 9 – 10 .

ويبدو لنا الشيخ مؤرخا كما أشار في الخاتمة وكما سيذكر لنا في المقصد الثالث مشيرا إلى أنه أرخ لأحداث بلده ولم يجعل قلمه وقفا على معارفه الشرعية وعلومه الفقهية ولا حبه في أمور تتعلق بالسيرة فحسب وإنما جرد من قلمه مدافعا من وعيه السليم لقضاياه الوطنية والمسألة الجزائرية في الاستقلال والتحرير، فكان في كل مناسبة يعرض للقارئ مدى بشاعة الاستعمار ومقدار الدمار الذي ألحقه بوطنه وأن كان الشيخ يعرض ملتقطات من بلدته ومعانات أبناء منطقته، لكنه كان يعكسها على الجزائر كلها، أنظر مثلا لذلك ما تحدث به عن فضائع المستعمر في قريته أولاد سيدي الفريح المهاجي بأرض القعدة من بادية امهاجة وضواحيها كمدينة سيق وغيرها من المدن المجاورة لها[35]وما لقي المواطنون من االويلات في حرمانهم من ممارسة حقهم في التعليم، وذلك بغلق مدارسهم الدينية واعتقال أساتذتهم.

ثم أشار إلى أن هذا الإجراء عمت به فرنسا على القطر الجزائري كله، فالشيخ يحسن تقديم الإدانات الدامغة للمستعمر عن طريق حرمان الناس من العلم وإبقائهم على التخلف والجهل.

كقوله[36]"ولما استأنفت القراءة كسابق عادتي منعتني الحكومة بدعوى أن القانون الفرنسي يمنع التعليم بسائر أنواعه حتى تعليم الديانة بدون رخصة. والملاحظة في سن هذا القانون الجاني على العلم وعلى معلمه ومتعلمه هو تسليط الجهل على أفراد الأمة وإماتة شعورها وإحساسها حتى لا تتنبه

[35] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 84 .
[36] أنفس الذخائر وأطيب المآثر

إلى دسائس الاستعمار ومكائد ولا إلى ما يدبره لها في الظهور والخفاء من القضاء على دينها ووطنيتها، ثم على عروبتها".

وبقي الشيخ في كتابه على هذه الوتيرة حتى في السطور الأخيرة من الكتاب وهو يكتب الخاتمة، فعاد ثانية مذكرا القارئ بأن القضية الأساسية في اهتمامه هي كرامة وطنه وحرية الجزائر، فأعاد الحديث فيها رغم أن الخاتمة ليست مجالا متسعا لمثل هذا الإطناب والتطويل، لكنه حريص على التذكير بالقضية الأولى للوطن، وهذا يعكس مقدار نبله ووطنيته وهو الذي دفعه أن يترجم لتاريخ الجزائر مختارا مدينة وهران نموذجا لذلك التاريخ واصفا لها متطرقا إلى نشأتها وأوليتها وبداية تاريخها.

فقال:

"وفعلا سكنت حاضرة وهران إحدى المدن الساحلية يبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر نصف المليون تقريبا، أكثرهم من غير المسلمين، وميناء هذه المدينة العظيمة من أكبر الموانئ تتردد إليه السفن باستمرار، وبدون انقطاع مشحونة بالكميات الوافرة من البضائع المتنوعة الكافية في سد حاجيات الحواضر والبوادي بالعمالة الوهرانية إلى تخوم الصحراء الكبرى، كما تبحر تلك السفن من هذا المرفأ دائما مشحونة أيضا بصادرات أرض الجزائر ومحصولاتها الزراعية وغير الزراعية ومنتوجاتها التي بواسطتها تضخمت ثروة المعمرين الذين استبدوا بخيرات الجزائر واستحوذوا على تربتها الطيبة".

وبذلك نهج بالكتاب نهجا تاريخيا إلى جانب نهجه في الفقه والشريعة وعلوم الدين بالإضافة إلى الأنساب واللغة، فجاء كتابه تاريخا موثقا لحركات التحرير الجزائرية وبدايات تنظيمها ومحاور عملها في داخل الجزائر وخارجه.

وقد تحدث بإسهاب عن مقدار التضحيات التي قدمها الشعب البطل مجابها التعذيب الوحشي الذي صبته فرنسا على رؤوس المجاهدين، وقد ضرب الشيخ مثالا في إيثار وطنه على نفسه فذكر في آخر الخاتمة ما قدمه في هذا الجهاد الأعظم من تضحيات، فأخبرنا بكل بساطة وتواضع كيف قدم ابنه قربانا على تربة الوطن لأجل الكرامة من التضحيات وهو فلذة كبده، فكان يفخر بأنه وهب وطنه ما يستحق من التضحيات وهو ولده السيد قاسم، وكان نجيبا بارا حفظ القرآن على يد والده الشيخ الطيب المهاجي رحمها الله وهو ابن تسع سنوات وأتقن لغة أعدائه الفرنسية وهو ابن ثلاث عشرة سنة،وتدرج في علوم الدين والفقه والشريعة والعربية، وهو في أول شبابه ومقتبل عمره ورحل في طلب العلم فأتم تعليمه في حاضرة الزيتونة بتونس وانتقل إلى جامعة فؤاد الأول بمصر- لإتمام تعليمه الجامعي فنال الشهادة الجامعية بدرجة الليسانس في علوم العربية وآدابها ومضى في تثقيف نسفه فأضاف إلى ما تقدم، إتقانه لخمس لغات أجنبية فضلا عن العربية، ونال إعجاب أساتذته حتى عرضت عليه الجنسية فاعتذر بأن وطنه الجزائر في أمس الحاجة إليه سواء على صعيد العلم

والتعليم أو على مستوى الجهاد والفداء، فقدم جميع هذه المعاني السامية لوطنيه وختمها بالاستشهاد[37]حيث يقول:

"وهكذا بعدما اجتمع شملي وقرت عيني ببلوغ أملى وتمت على نعمة ربي بولد كنت أرجو أن لا ينقطع عملي بواسطة دعائه لي بعد مماتي، وقد ورد إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث إحداها هو ولد صالح يدعو له بعد هذا كله قبض عليه، ولم يمض على عودته من مصر سوى أربعة أشهر وفي اليوم الثالث من قيام الثورة الجزائرية هجم عليه البوليس السري وساقه إلى السجن ثم سلط عليه أعوانه القساة القلوب الغلاظ الطبع، فعذبوه عذابا لا أظن أن أحد عذب مثله، على أمل أن يبيح لهم بأسرار جبهة التحرير الوطني التي هو أحد رجالها، ومن كبار المسيرين لها ".

كان يتردد بين القاهرة وباريس لمأموريات تكلفه بها الجبهة وكانت الحكومة الفرنسية على علم من ذلك كله بواسطة عيونها والمتزلفين لها، لهذا قبضت عليه بمجرد قيام الثورة ونكلت به تنكيلا على ما ذكرنا، ولما أعياها أمره بعد تهديده بالقتل وبعد تصميمه على التضحية بنفسه العزيزة نقلته إلى الجزائر العاصمة ليجدد له البحث هناك، ولكنه نقل ميئوسا من حياته، إذ لم يلبث في إدارة البوليس السري بالعاصمة إلا عشية أو ضحاها حتى زهقت روحه الغالية، وذهبت نفسه الزكية من شدة آلام المعاملة القاسية التي كان يعامل بها في سجن إدارة البوليس بوهران ...".

---

[37] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص: 106 .

ولابد أن أضيف هنا للتاريخ والحقيقة أنه قد أفادني أحدهم ممن كانت له صلة به في القاهرة بأن الشهيد بالقاسم[38]هو الذي شارك في تحرير البيان الأول للثورة الجزائرية الذي أذاعه صوت العرب إيذانا باندلاع الثورة سنة 1954 وقد ذكره السيد أحمد آيت في كتاب له باللغة الفرنسية، أنه خرج لاستقبالهم في مطار القاهرة شاب مهذب يتقن عددا من اللغات، وكان يقدمهم إلى المسؤولين الرسميين المصريين لمعرفته بهم وسعة علاقته معهم، وقال إن هذا الشاب هو السيد بالقاسم من مدينة وهران وقد كان مقتله في عام قيام الثورة الجزائرية فهو في طلائع الشهداء في الصفوف المتقدمة منهم، وكان رحمه الله أديبا وشاعرا أيضا.

وقد بلغ من اهتمام الشيخ باستشهاده ولده أنه فرغ من الخاتمة التي تحدث فيها عنه ولم يضف شيئا على خبر ابنه الشهيد وحديثه عن الثورة الجزائرية وتحقق النصر فيها، ولعله فعل ذلك ليؤكد أهمية الحدث ويخبرنا إنه إذا كان قد أجل الحديث إلى الخاتمة فإن ذلك بسبب اهتمامه وأهميته وإن مثل هذا الاستشهاد وهذه الثورة يستحقان أن يكونا في المقدمة لكن أحاديث العلم والفقه والشريعة واللغة استأثرت بكل تقديم واستهلال.

وفي ختام هذا المبحث لا بد أن نضيف من أن الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله يظهر في كتابه مؤرخا لأحداث قد تكون أهملت ولم يذكرها التاريخ لكنه ذكرها وجعل يوثقها فيتصل برجال حضروا هذه الأحداث

---

[38] تاريخ امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي ص:271، ديوان المطبوعات الجامعية وهران 2002.

وشاهدوها ولم يكتف بالرجال فاستعان بنساء فضليات فأخذ عنهن تلك الأحداث المحلية التي هي في مستوى تاريخ الجزائر أو التاريخ المغاربي ومن شاء المزيد أو الاستقصاء ففي مقدوره مراجعة تلك الصفحات التي كتبها عن تاريخ العلاقات بين أقوام هذه المنطقة[39] وثبت الشيخ الطيب المهاجي في أثناء حديثة عن تلك وثيقة كتب بها الأمير عبد القادر إلى نجل السلطان مولاي عبد الرحمن يثير فيه نخوة العروبة وحماسة الإسلام ليكفوا عن أذى القبائل الجزائرية التي اجتازت الحدود ودخلت إلى الربوع المراكشية[40].

وظهر الشيخ في كتابه مؤرخا للمذاهب لا سيما مذهب الصوفية شارحا بعض نشاطاتهم وفكرهم ذاكرا تصرفاتهم وعلاقاتهم مع الناس موردا قصة الرؤيا لأحد المشايخ وهي قصة تخص الشيخ نفسه عندما كان صبيا وأن صاحب الرؤيا يتنبأ لوالد الشيخ بنجابة هذا الصبي وأنه سيكون له شأن في العلم عندما يشب عن الطوق ويكبر.

وللشيخ أسلوبه وطريقته العلمية في مناقشة الوثائق واستخراج صحيحها من زائفها فيردها ردا علميا موثقا، وله إلمام واسع في شؤون العبادة والتقرب على مختلف المذاهب والطرق الإسلامية فيورد حديثا عن الأذكار القادرية في الحضرة الجيلانية بالعراق ببغداد وحديثا عن الأذكار التي كان يحضرها الرجال لا سيما الحجاج منهم على منحى ابن تيمة وتلميذه

[39] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص: 24 .
[40] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص

ابن القيم الجوزية، وحديثا عن أوراد الطرق المنسوبة لأكابر المتصوفة[41]في الزاوية العائدة للشيخ أبي المواهب سيدي أحمد الشريف السنوسي الحطابي، ويورد الشيخ معارضة علماء الآفاق في منطقته وأرجاء الجزائر على تلك الأفراط من الأذكار التي تؤدي من قبل بعض المشايخ اعتقادا بجدواها وحبا في التقرب والتعبد والتهجد على طريقتها، وهذا دليل على معرفة عميقة وإطلاع واسع بكل صنوف الحلقات وأنواع أفراطها في الأذكار مما كان يدار على السواد الأعظم من المسلمين.

فالشيخ رحمه الله كان كبير وقته علما ودينا ورواية، وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة، لقد كان رحمه الله من العلماء العاملين الحاملين لواء المقاومة في الحرف والكلمة والدرس والتحصيل والتحصيل، واستنهاض الهمم والتذكير بالجهاد والحث عليه وعظمة ماضي هذه الأمة وأمجادها ومقاومة الاستعمار العثماني ثم مقاومة الاستعمار الفرنسي.

وكانت دروسه التي تدعو في مجملها إلى التربية والتكوين، وتهذيب النفوس، وتدريب الأفهام، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق، وتطهير الإسلام من الخرافات والوثنيات والعودة إلى المنابع الأولى، ومحاربة كل البدع، هي في حد ذاتها جهاد ومقاومة.

وكان الإقبال على دروسه كبيرا، وذلك لما فيه من عميق الفائدة التي أفاد فيها من ثقافته الواسعة في حفظ القرآن الكريم ومعرفته بالتاريخ وأحداث العصر والفقه واللغة.

---

[41] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص: 72 .

وكان للشيخ رحمه الله أحاديث كثيرة عن شرف العلم وفضله على صاحبه، فهو عنده خير من مظاهر الدنيا، وطلبه يرتبط بالأخلاق وبالآخرة،

وللناس فيما يعشقون مذاهب، حتى في العشق الإلهي، الذي هو الأنس بالله وحده، وترك اللذات، والتزام العبادة، وتلاوة القرآن الكريم، وسهر الليالي في الطاعة، والله سبحانه وتعالى هو كل شيء لأهل العبادة في الخوف والرجاء والسرور والأمنية والمراد.

الشيخ والشعر

إن فضل الشيخ الطيب المهاجي في جميع العلوم معروف لكنه تميز بالشعر أيضا، ونادرا ما تجد العلماء الفقهاء يتعاطون الشعر لكن الشيخ رحمه الله وصلت إلينا منه عدة قصائد شعرية ويبدو أن شعره قد فقد مع مؤلفاته الأخرى وتدل البقية الباقية منه على أنه متمكن من بحر الشعر وفنونه حتى الأخوانيات وشعر المناسبات.

وتفيدنا قصيدة في مناسبة علمية هي إجازة من عالم فجعلها في وزن الأراجيز وقد رد عليه العالم بأرجوزة مثلها وأبدى ذلك العالم إعجابه بفطنة الشيخ ومقدرته.

أما ابتداء فأرجوزة الشيخ الطيب المهاجي وقد وردت في شكل خطاب من طالب لأستاذه يطمح منه بالإجازة فبدأها بقوله[42]

يا سيدي فضلكم قد اشتهـــر

وعلمكم في العصر شاع وانتشر

---

42 أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص: 60 .

ونفعكـــــم قد عم كل قطر
وعم كل بلد ومصـــــــر
وصيتكـــــم قد بلغ السماء
فعطــر الأنحاء والأرجـاء
وطاب عصرنا بطيبكم فقـد
جددتـم الدين لنـا فلتستمـد
لـذا بكـم قـد نيطت الأماني
وقوى الرجـــا لكل عـان

أما إجابة شيخه أبو العباس[43] الشيخ أحمد البلغيثي العلوي ثم الفاسي فهي في نفس الوزن يقول فيها:

يا أيهـا الحبـر الجليل العالي
الطيب الأحـــوال والأفعال
قد جئتني ترغب في إجـــازة
تسلك للعلـــــم بها مجازة
ظنا بأني من كبار العلمـــاء
وإنني رقيت منـه سلمـا

[43] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص : 61 .

مع أنني دون االـذي ظننت بي

ودون مـــا مني أتيت تجتبي

لكان زمان قل فيه العلـــم

وصـار في علمي يقال علم

لهو زمان مؤذن بالساعـــة

حيث جـلا من جهلـه اتساعه

وتجري قصيدة الشيخ أبو العباس على النمط نفسه في أرجاء المديح للشيخ الطيب المهاجي حتى أنه التفت التفاتة بليغة عندما أورد اسم الطيب في مطلع القصيدة كناية وليس تصريحا.

أما قصيدة الشيخ الطيب المهاجي فقد ورد فيها ألفاظ العلم والعلماء وذكر النسب الشريف مع الدعوات للشيخ أبي العباس ولم يصرح بالإجازة وإن جاء الطلب تضمينا وهذه من براعة الشاعر كقوله:

وإنني جئت أريد وصـــلا

بصلـــة لم تبق نكرا أصلا

عائدها علي منكم يتصـــل

بعامـــل يرفعني على المحل

وبإضافتي إليكم تنعـــزل

نكرتني عـن كل إبهـام مخل

فأكرموا وفادتي يا سيـــدي

بأن تجيـــزوا لي بأعلى سند
وبالذي يعزى من الإثبـــات
إلى أجـل العلمـاء الثقات

وهكذا تظهر لنا قدرة الشيخ على نظم الشعر بشيء من الفهم العميق والآداء الدقيق وتغليب المضمون على التعبير، وتصويرا للمشاعر من خلال الوقائع.

وبذلك يمكننا القول إن محصوله الشعري الذي بين أيدينا قليل قلة لا تتناسب مع قدرة الشيخ الطيب المهاجي رحمه لا من حيث اللغة والبلاغة فحسب بل كذلك الأسلوب والمضمون،

وخاصة في هذا الغرض الذي تقصده الشيخ قصدا، وذلك في مقابلة النص بالنص والجواب بالجواب في الإذن والإجازة، لأنه كان يرى رحمه الله أنه كلما تجلى الإخاء الأدبي نشأ عنه تبادل الفوائد في النظم والنثر بتصحيح مقاييسه وتهذيب مراميه.

كما أن كتاباته تميزت عن غيرها من البحوث والدراسات الأكاديمية بالتأمل والنزعة الإنسانية وبراعة الوصف والتحليل، وزاد عليه عمق اللغة وأصالة الأداء والاحتفال الضخم بالتراث العربي وأمجاده.

ونلمس في شعره رحمه الله ظاهرة إيمانية كشعر الأخلاق الإسلامية وشعر الزهد والتصوف وغيرها من الموضوعات.

وطبيعي أن تظهر هذه الآثار الدينية على هذا النوع من الشعر لكون أن صاحبه من حامل كتاب الله، مدركا لمعانيه ومفاهيمه وتصوراته، فضلا عن أسلوبه وصوره البلاغية، وكل ذلك نراه قد انعكس في أساليبه الشعرية، وما يحمله من معاني دينية.

ـ الشيخ[44]،

واهتماماته اللغوية والإنشائية

لقد قضى ـ هذا الشيخ الجليل الفقيه العالم رحمه الله جل عمره في حلقات العلم والدرس، أو في أماكن الوعظ والإرشاد، مؤدبا أو مدرسا في المساجد ليأخذ منه طلبة العلم، أو يستمعون إليه أولئك الذي أخذوا على عاتقهم الحفاظ على هذه الأصول أو الاستشهاد بها وهم يؤدون مهمة التأديب أو في خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة،

ولعل ذلك يعود كونه رحمه الله قد ألم بأسلوب الثقافة العربية الإسلامية في بعدها المعارفي، من حفظه للقرآن الكريم والترحل في طلب العلم إلى العديد من المراكز الدينية الهامة المنتشرة عبر التراب الوطني، كقرية أولاد

[44] أنظر في ترجمته أبحاثنا " حوليات جامعة وهران للبحوث الإنسانية والعلمية، العدد الخامس 1997، و "كتاب الأثر الزاهر في ذكر النسب الطاهر " ديوان المطبوعات الجامعية، وهران 1998، و "كتاب الشيخ الطيب المهاجي وجهوده العلمية" ديوان المطبوعات الجامعية 1998، و "كتاب تاريخ امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي والامتداد التاريخي" ديوان المطبوعات الجامعية 2002، وبحوث أخرى في العديد من الصحف والدوريات الشهرية منها والأسبوعية،

سيدي الفريح المهاجي من أرض القعدة من بادية امهاجة، ومدينة سيق، ومزونة، وأولاد صبيح، وغيرها كثير من البيوتات التي كانت مساجدها تعج بحلقات الدرس والتحصيل على مختلف درجاته من أغراض العلم وفنونه وتاريخ وآثار، يشرفون عليها أساتذة قديرون، ولم تكن هذه المساجد لتقتصر يوما على الطبقات العليا، بل نجدها في مختلف طبقات الشعب الجزائري لا سيما الوسطى منها أو الفقيرة، إضافة إلى رحلاته لبلاد المشرق العربي ووقوفه عند العديد من بيوتات العلم ودور الثقافة والتربية والتكوين فيها، ومحاورته للعديد من خيرة شيوخها وفقهائها وطلبة العلم فيها، والإطلاع على الجديد مما ألف من الكتب في اللغة والنحو والفقه والآداب، ودواوين الشعر وفنون النثر، ومن الدراسات الحديثة لأهل العلم والثقافة والتربية والتكوين، وقد أشار إلى ذلك في كتابه: "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" إلى مجموعة من هذه المنتقيات التي كانت مقروءة ومتداولة يومئذ، التي رآها تدور في طريق المعاني الخيرة، فاعتمدها مصدرا من مصادره، وقد استفاد منها، وتحدث عن مضامينها، ووقف عندها، وتحدث بها، ودافع عنها بما تستحق الثناء والتقدير، فهي حقيقة أوجدتها قدرته على الإبداع في كل تعبير من تعبيراته، مما جعل نشاطه الفكري مشهودا له بالمقدرة العلمية والكفاءة العالية في الفتيا والدرس والتحليل وعلوم الفقه واللغة والبلاغة وعلم التصوف والكلام والبيان[1] والبديع،

(1) أنظر رسالته في علم البيان المسماة ب "الهداية الفتية لتلامذة المدارس الابتدائية"

ومما جاء في مقدمة الرسالة: قوله علم البيان، تمهد للمبتدئ سبيل الفهم لنفيس هذا العلم وإني سميتها "الهداية..... لتلامذة المدارس الابتدائية" وبالله المستعان وعليه التكلان،

"إعلم أن البيان أحد فنون البلاغة وهو لغة الإيضاح، واصطلاحا بالمعنى المقابل لعلم المعاني، وعلم البديع علم..... ص 184،"

وقد جاهد الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله للبحث على العلم ومواصلة السعي إليه سنوات، فجاءت أيامه وصفا لحياته، فتحدث عن المصاعب التي اعترضت سبيله، ومن الصعب لمن لا يتحلى بالصبر والثبات أن يفترع له طريقا في هذا المضمار الوعر الشائك المسالك، فهو من منبت أصيل متواضع يحمل في أعماقه طابعها الخاص وملامح شخصيتها المتميزة، التي كانت تعنى بحفظ القرآن الكريم وأمور اللغة والدين، المتمسكة بالآثار القديمة وحفظها وفهمها، وبعد أن آنس في نفسه المقدرة العلمية رحمه الله، وتوافرت لديه دواعيه، وفي ذلك يقول[2] :

"فرضيت بما قسم لي، وهيأ الله أيباب الوصول إليه، وسهل طرق الحصول عليه، وقد تداركت ما فاتني بالمواظبة والاعتكاف على الدرس والمداومة على التعليم بجد واجتهاد، وقد قيل العلم يزيد بالإنفاق، والمال ينقصه الإنفاق، على أن العلم ليس هو مجرد محفوظات واستحضار نقول: بل هو ملكة راسخة لا تفارق من قامت به تغنيه عن حمل الأسفار في الأسفار لانتقاله بانتقاله يستخدمها متى شاء، وبأية كيفية شاء، في أي

[2] أنفس الذخائر وأطيب المآثر ص 81.

موضوع من المواضع شاء، مهما دقت تلك المواضيع، وصعب منالها، وهذا أمر مشاهد ملموس باليد، إذ كثيرا ما نرى بعض من حضر معظم الفنون، وحفظ من المسائل الشيء الكثير، ولكنه فقد الملكة فوقف عند ما سمع أو حفظ، وبقي أسير التقليد، عاجزا عن تطبيق القواعد وعن استخراج الجزئيات من كلياتها لا يقدر على التصرف حتى فيما له من محفوظات، بينما نرى بعضا آخر دون الأول في الحضور على الأشياخ، وأقل منه في المحفوظات، ولكنه بواسطة الملكة التي أهلته لتربيتها استعداداته ومواهبه الفطرية يقدر على حل المشكلات واستنباط المسائل، يلحق الفرح بأصله، ويهتدي إلى معرفة الدليل وكيفية الاستدلال به في موضعه، وهكذا نجد الفرق الكبير بين ذي الملكة وفاقدها الذي لا يستحق وإن كثرت محفوظاته أن يوصف بالعالمية.. "

فهو بذلك رحمه الله يرى أن الاجتهاد وحده غير كاف للحصول على العلم والمعرفة ما لم تتوفر للمتعلم اعتبارات أخرى مثل الاستعداد الفطري والاقتدار الفكري والاستيعاب، وما إن تحققت هذه الأسباب في نظره التي تحدد للإنسان مساره في ظل امتحان أو مناقشة أو مداخلة أو توضيح أو درس أو محاضرة، في استحضار العبارات وانتقاء الألفاظ وتجميع الصور التي تساعده على إيضاح الجوانب التي يريد أن يعبر عنها في كل موقف،

وهذه الأمور وغيرها كثير هي التي جمعت أواصر الربط بين اللفظ والمعنى عنده مما أعطاه السبق في وضع تآليف جمع فيها ما يناسب ذوقه ويحقق رغبته ويرضي طموحه، ويلبي حاجة عرفت في عصره، وارتضى بها معاصروه،

لقد كان فيها شديد الضبط شديد الإتقان في تخريج اللفظ من الأفعال والأسماء والاعتماد على الأصول في الحكم والبيان، فهو فيها أمام الصياغات الأخرى والدلالات[45] اللفظية والمعاني التي تعطيه القدرة على التعبير الجيد لتكون الصورة أوسع والأفكار أشد وأقوى مما يجب الاستنارة بها في هذا السبيل، وله من الشواهد الكثيرة على توازن العبارات أو ازدواجها، والتعادل في معانيها، ومن ذلك قوله وهو يقدم لكتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر[46]":

"..التراجم جمع ترجمة تطلق على التعبير عن معنى قائم بالنفس بلفظ يؤدي المعنى بتمامه ويدل عليه مطابقة قولنا "لاإله إلا الله" ترجمة على ما في القلب من الإيمان، وتطلق على تفسير لغة بلغة، ويسمى التفسير بالعربية لغيرها من اللغات تعريبا، وترجمة الشيخ ذكر اسمه ولقبه ونسبته إلى بلده أو قبيلته، أو حرفته أو ذكر تاريخ ولادته ووفاته مع سيرته المحتوية على ما له من مآثر ومحاسن.."

وقوله: "..وأما الفهارس فجمع فهرسة بكسر الفاء والراء، وبعضهم ضبطها بفتح الراء، وأما الإثبات فجمع ثبت بفتح الباء الموحدة، والبرامج جمع

45

46 أنفس الذخائر وأطيب المآثر ـ المقدمة ن ص: 21.

برنامج بفتح الميم وكسرها، والثلاثة متقاربة المعنى بل لا يبعد أن تكون مترادفة، وما بينها من الفرق الدقيق لا يمنع ترادفها وتواردها على معنى واحد هو جمع العالم مروياته وأسانيده وما تلقاه أو أجيز له به من العلوم ..."

لقد كانت الرغبة تفرض وجودها عند هذا الفقيه الجليل رحمه الله في الحفظ على كل ما هو تراث رأى في حلقاته استمرارا وتوثيقا، مما جعله يعتمد في أسلوبه مادة علمية ينتفع منها كل من يريد الإقبال على تعلم الدرس أو حفظ الشاهد من اللغة والأدب أو الفقه وعلوم الشريعة وأصول الدين، التي كان يرى فيها استشهادا مقبولا من حيث الوسائل والأساليب البلاغية التي تكون الصورة بها حسنة والمعنى واضحا، وبذلك يجعل لموضوعاته قيمة وتأثيرا في التعبير فيأتي أسلوبه كما يقول النحاة: "اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها" وهو بذلك يتابع أنصار علم المعاني والبيان والبديع من الذين لا يرون مزية للفظ من غير تركيب، وعلى هذا الأساس نجده يتخذ أسلوبا موحدا في إنشائه من حيث الصياغة واستخدام الجمل الطويلة منها والقصيرة وانتقاء اللفظ وتسهيل الأفكار، فمن ذلك قوله:

".. كلهم أخوة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم "

وقوله: "كان رحمه الله منصفا لين العريكة، وقافا عند الحق، لا يتعداه أبدا، سواء ظهر على يديه أو على يد غيره،"

وقوله: ".. وأسواق البلدة نافقة، وتجارتها رائجة، وموادها الغذائية بالنسبة إلى غيرها من البلاد رخيسة .."

وقوله: " وكانت عادة الطلبة بهذه القرية أن يطوفوا على الأبواب في الصباح والمساء، يجمعون غذاءهم وعشاءهم، وبعد مشاق وأتعاب ونبح كلاب، يعودون إلى المكتب بأطعمة مختلفة الألوان، متباينة الشكل والمقدار، قد اختلط رطبها ببابسها وحارها بباردها، وجامدها بمائعها، فصارت بالخلط بشعة كريهة المذاق.."

فثقافته الواسعة رحمه الله وعنايته الكبيرة في تطبيق قواعد اللغة والبلاغة العربية، هي التي جعلت من كتاباته أن تكون مألوفة في كيفيتها وتوافقها وترابطها، التي أصبحت وبطول زمن تمثل اتجاها ثقافيا فكريا يجمع بين المعاني والألفاظ وبين الصيغ الأسلوبية التي تؤدي الغرض المطلوب لتناسب روح المعاني وتعبر عن وجوه الأداء،

وقد أدى هذا التنوع عنده إلى ظهور نماذج مختلفة وإيجاد صيغ لها مكانتها المتميزة التي تشكل عنده عمق الظاهرة لكل عنصر- ينطلق منه للاستدلال في تسلسل أفكاره وتوحيد معانيها والاجتهاد في دواعيها ووضوح مفرداتها،

وكتابه أنفس الذخائر يعد دليلا منصفا لاستخراج ما يمكن استخراجه من هذه الفنون التي نرى في مضامينها صورة حقيقية لكل خاصية من تلك الخصائص التي تضع صاحبها في المنزلة التي تؤهله له هذه المقاييس التي نحاول من ورائها إرضاء هذا الطموح الذي يحمل إلى النفس حالة الرضا

والطمأنية في هذه العجالة التي نعيد فيها قراءة أدبية النص عنده لنحلل نماذج منه في ضوء قدرته التحليلية ومعجمه اللفظي وبنائه التركيبي الذي يعطيه أحقية الأصول البنائية التي يسعى من ورائها إلى استقطاب الاهتمام وتكثيف الملاحظات لاستدراج القارئ الكريم لما يدير في نفسه لكثير من أفكاره،

لقد أحكمت كتاباته قواعد الأطر الثابتة لبعض المفاهيم الخاصة بالدراسات الأدبية واللغوية والبلاغية والنحوية والصرفية والدينية والفقهية وما إلى ذلك من بيانات الدرس والتحصيل، فجاءت مليئة بالألفاظ المركبة التي كثيرا ما أطلق عليها البلاغيون اسم "المحسنات اللفظية" هذا من جهة، ومن جهة أخرى يطالعنا عن مرجعيته الواسعة ومطالعة ما جادت به أقلام الكتاب اللغويين منهم والمنشئين من الذين مارسوا فن الكتابة وعرفوا مداخلها،

ومن الأمثلة التي وقفنا عليها في مبتدأ فقرات كتابه "أنفس الذخائر" وفي معلومات من معلوماته القيمة والتي هي عبارة عن حوار جرى بينه وبين أحد مشايخ اللغة ومما جاء فيه قوله: " استدعيته برسالة للحضور في حفلة أقمناها لبعض المناسبات فتخلف عن الحضور ثم اجتمعت به فيما بعد فقال ما منعني من تلبية دعوتكم إلا كونكم حذفتم من إمضائكم ياء النسب أي الياء من المهاجي، وهي كياء الكرسي لا تحذف فأجبته بقولي من الغريب أن يكون سقوط حرف واحد من الرسالة مسقطا لتلبية دعوة إجابتها خير من ألف حرف، فأجابني بقوله إن الخيرية شيء واللحن آخر،

فألفت نظره إلى أن ياء النسب ربما خففت ثم حذفت ونون ما حذفت منه، ويعطي حكم المنقوص من حذف يائه لالتقاء الساكنين، وقد قالوا في يمان أصله يماني، فأبدلت إحدى الياءين ألفا، وبقيت الأخرى ساكنة ثم أعل إعلال ومثله ثمان فقال فضيلته: نحن نوافق على حذف المخففة، ولكننا لا نوافق على حذف المشددة، فقلت له حذفها من إمضائي سبق قلم فقال: لا بل هو لحن، فأجبته بالقول الشائع النحو صنعتنا واللحن عادتنا فأجاب: لولا أن النحو صنعتك ما لحنت، وهو وقتئذ لم يعرفني المعرفة التامة، فكانت تلك المحاورة من دواعي تقوية رابطة الصداقة بيني وبينه "

وقد اختلف معه يوما على لفظ "يحضر" هل هي بالكسر أم بالفتح، وقد جرى هذا الحوار معه هذه المرة في بيت الشيخ الذي رفض دعوته نتيجة ما أصاب توقيعه من لحن فقال: "وكلفني سرد الترجمة التي ترجمها صاحب خلاصة الأثر للشيخ الأجهوري، وفيها كان يحضر لمجلسه كذا من الطلبة فقرأت "يحضر" بضم الضاد لا بكسرها لا داعي لوجوب الضم كما لا داعي لوجوب الكسر أو الفتح، والقاعدة الصرفية أن الموضوع من الثلاثي إذا خلا من جالب الضم وما معه جاز في عينه الضم والكسر على السواء ما لم يشتهر عند العرب أحدهما، فأجاب فضيلته بأن يحضر مما اشتهر بالضم، فقلت له ما المانع من أن نقول إنه اشتهر بالكسر أو على الأقل أن نقول بجواز الوجهين الضم والكسر، وكان رحمه الله يحب المحاورة، ويرغب في توسيع المجال للمناظرة ليقف على ما عند مناظره من معرفة الدلالة ومن المقدرة على كيفية الاستدلال بها، ولهذا بعدما وصلنا

إلى هذا الحد من المراجعة قال العرب بالباب وأحضر- المصباح ونظر في حرفي الحاء والضاد وما يثلثهما، فإذا المصباح يقول حضر حضورا من باب قعد وحضر- فلان بالكسر- لغة، ولكنهم اتفقوا على ضم المضارع مطلقا وقياسا كسر الماضي أن يفتح المضارع، لكن استعمال المضموم مع كسر- الماضي شذوذا ويسمى تداخل اللغتين، انتهى كلام المصباح، وعندئذ قال فضيلته على سبيل المداعبة كما هي عاداته انتصرت ورب الكعبة "

وللشيخ رحمه الله مناظرات كثيرة في مثل هذه المواضيع جرت بينه وبين العديد من الفقهاء وشيوخ العلم بثقافاتهم المختلفة في جميع رحلاته التي قام بها ببلاد المشرق العربي[47]، وقد حدثنا حديثا تتسلسل فيه عبارات متناسقة من الصيغ المعبرة وتركيب لغوي بأسلوب أدبي يلتمس فيه عند كل وقفة صورة موحية وشكلا من أشكال البراعة الفنية المتكاملة التي كثيرا ما يجد فيها متسعا من الإتيان من الحجج والأدلة والبراهين المتقاربة من حيث الحكم أو الطريقة التي يجب المعالجة بها هذا الموضوع أو ذاك،

لقد كان رحمه الله من العلماء الذين لا يستغنى عن علمهم، ناظر في أمر التراث وعلوم اللغة والبلاغة والبيان، فهو يمثل في زمنه خير عالم في طبيعة الدرس وطريقته وأسلوبه وتنظيمه، ورمزا من رموز الاستشهاد ومثالا من أمثلة الإقتداء، ونموذجا من نماذج الاهتمام بالجانب الأخلاقي والقيم الأصيلة، وأن كتاباته ما تزال مجالا خصبا للبحث والدراسة، وهي

47 أنظر أنفس الذخائر ص: 78

تعكس اتجاها جديدا في التأليف وفي تحقيقها والعمل على إخراجها إلى النور خدمة لتراث الأمة وإحياء لنماذجها الأصيلة،

علماء عصره

سبق أن نوهنا بأن العالم مطالب بأن يوسع من صلاته مع الناس لا سيما أولئك الدين يعملون في نفس اختصاصه وقد ذكرنا أيضا أن الرحلات تساعد على ذلك إلا أن اتصال العالم بعلماء عصره في إطار قريته أو وطنه يدخل ضمن هذا التوجه، وقد نهج الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله في حياته العلمية نهج مشايخه الأوائل والعلماء الأقدمين في طلب العلم عن طريق الدرس والتحصيل، كما طلبه عن طريق السماع والمناظرة والحوار، في اختبار قدرته وإثبات علميته، وفي ذلك يقول[48]:

" فرضيت بما قسم الي، وهيأ الله أسباب الوصول إليه، وسهل طرق الحصول عليه، وقد تداركت ما فاتني بالمواضبة والاعتكاف على التدريس والمداومة على التعليم بالجد والاجتهاد، وقد قيل العلم يزيد بالإنفاق والمال ينقصه الانفاق، على أن العلم ليس هو مجرد محفوظات واستحضار نقول،

48 أنفس الذخائر ص: 81 وما بعدها.

بل هو ملكة راسخة لا تفارق من قامت به تغنيه عن حمل الأسفار في الأسفار لانتقالها بانتقائه يستخدمها متى شاء، وبأية كيفية شاء، في أي موضوع من المواضيع شاء، مهما دقت تلك المواضيع، وصعب منالها، وهذا أمر مشاهد ملموس باليد، إذ كثيرا ما نرى بعض من حضر معظم الفنون، وحفض من المسائل الشيء الكثير، ولكنه فقد الملكة فوقف عند ما سمع أو حفظ، وبقي أسير التقليد، عاجزا عن تطبيق القواعد وعن استخراج الجزئيات من كلياتها لا يقدر على التصرف حتى فيما له من محفوضات، بينما نرى بعضا آخر دون الأول في الحضور على الأشياخ، وأقل منه في المحفوظات ، ولكنه بواسطة الملكة التي أهلته لتربيتها استعداداته ومواهبه الفطرية، يقدر على حل المشكلات واستنباط المسائل يلحق الفرع بأصله ويهتدي إلى معرفة الدليل وكيفية الاستدلال به في موضعه. . "

وهكذا نرى أن الشيخ رحمه الله يؤكد أن الذكاء الفطري هو أقوى وأشد من صاحب ملكلة االحفظ، وقد أتى على ذلك بشيء من التفصيل، وكأننا به يريد أن يقول أن العلم هبة من الله لما يحمله من خصائص وميزات ينفرد بها إنسان دون آخر، وقد حصه الله بهذه الملكة التي أولته إلى ما وصل إليه من آفاق العلم وعلوم المعرفة، ويؤكد ذلك بقوله:

" . . والله تعالى يؤتي فضله من يشاء لما شهد لي أشياخي بأهلية العلم، وآنست من نفسي المقدرة على ذلك . . "

فأورد لنا أسماء طائفة كبيرة من العلماء الذين جلس فسمع منهم أو تتلمذ فأخذ عنهم، أو رحل إليهم، فطلبه الإجازة أو الإذن في نوع من العلوم وذلك على عادة أهل العلم في تلك المراحل.

وكذلك في المقابل ترك لنا أسماء لمن سمعوا منه أو أخذوا عنه فأجازهم وأذن لهم

لكنه قد يذكر من باب التواضع في العلم اسم شيخ انتفع منه وإن كان ذلك الشيخ من نظرائه.

فقد أورد لنا الشيخ الطيب المهاجي في كتابه اسم عالم من علماء امهاجة هو الشيخ الحبيب المهاجي[49] أحد هيئة كبار العلماء القرويين في فاس ولم يؤكد الشيخ الطيب المهاجي لنا مشيخته على يده، وهذا متأت من كون هذا الشيخ أحد نظرائه أو اقرانه، لكنه يعترف له بفضل العلم والمعرفة العالمية، ولا أقول هذا جزافا وإنما هو كلام مبني على واقع ورؤية عين مني، فقد حضرت مجلس هذا الرجل بجامعة القرويين عام 1962 م غداة استقلال الجزائر، وقد أجازني إليه برسالة أحد الشيوخ من أبناء عمومتي ممن كانوا على صلة به، وهو الحاج الطيب ابراهيم المختار بن الفقيه العلامة السيد مكنوس بن الحاج محمد بن عبد الله بن الطيب بن مصطفى بن الفريح، من كبار المجاهدين والسياسيين أثناء الثورة الجزائرية ولقي ما لقيه من الملاحقة والسجن على يد المحتلين الفرنسيين يومئذ، ثم تولى مناصب

49 تاريخ امهاجة بين المدلول اللغوي والرسوخ الجغرافي والامتداد التاريخي ص: 27 وما بعدها ديوان المطبوعات الجامعية 2002.

عدة في أثناء الحكم الوطني، وهو الآن شيخ قد طعن في السن حفظ الله شيخنا وأمد الله عمره بالصحة والسلامة.

وكان السيد الطيب ابراهيم المختار بن مكنوس يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية من جهة والثقافة الفرنسية من جهة ثانية[50]

أما الشيخ الحبيب المهاجي الذي نوه به شيخنا الطيب المهاجي وأشرنا إليه قبل قليل فقد كان واسع العلم يتصدر الفتوى في جامع القرويين، وكان ذا هيبة ومركز مرموق بين أهل العلم والجمهور.

ومن أشياخه الشيخ الجليل سيدي محمد الشيباني بن مصطفى بن سيدي قدور بن مصطفى بن سيدي الفريح المهاجي، وهو من أبناء عمومته، وقد قال عنه في كتابه أنفس الذخائر وأطيب المآثر قوله[51]" قرأت بمكتب قريتنا على ابن عمنا الزاهد الورع الشيخ محمد بن سيدي قدور بن مصطفى بن الفريح، قرأ هذا الشيخ بالقبائل الريفية التابعة لمملكة مراكش، فحفظ القرآن بها حفظا جيدا، ثم عاد إلى مسقط رأسه ونصب نفسه لإقراء القرآن احتسابا لا يطلب أجرا على تعليمه فنفع الله به الصغار والكبار طبقة بعد طبقة إلى أن انتقل إلى جوار مولاه وقد جاوز الثمانين سنة قضاها كلها في التعبد بالقرآن الكريم تعلما وتعليما وتلاوة رحمه الله تعالى ...".

---

[50] مبحث التراجم والسير في كتابنا "الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر".

[51]) ص 27، وما بعدها من كتاب أنفس الذخائر وأطيب المآثر

وقد جلس هذا الشيخ لتحفيظ القرآن ستين عاما مجانا بلا مقابل، وكان حسن الخط ومازلت أحتفظ له وراثة عن والدي نسخة من خطه للقرآن الكريم وكان قد انتهى من كتابتها عام 1282 هـ، وبعض التقاييد في اللغة والفقه،

ويسرني أن أقول إن هذا الشيخ رحمه الله هو جد والدي رحمه الله السيد الحاج محمد بن الحبيب بن محمد[52] المعروف بالشيباني بن مصطفى بن سيدي قدور بن مصطفى بن سيدي الفريح، وكان مهتما بأهله كريما معهم راعيا حافظا لذممهم وقد حبسه وقفا على زوجته، والتزم فيه بجميع أصول الخط المغربي وما تتطلبه كتابة القرآن الكريم، مما يدل على قدرته في الكتابة واستيعاب لمستلزماتها، وهذا لا يتأتى لأحد إلا إذا كان على علم ومعرفة بهذه
الأصول التي تتوجب معرفتها الدقة والالتزام وعدم الخروج على القواعد.

ومن أشياخه محمد بن المولود بن ابراهيم، وهو من أبناء عمومته أيضا الذي عرف بإتقانه لرسم القرآن الكريم وفق المصحف العثماني وكان موصوفا بحسن الصوت في القراءة. وقد قال:[53]عنه الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله:

---

[52] ترجمته في مبحث التراجم والسير، ص 274 من كتابنا "الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر.

[53] أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 38 - 39.

" ثم قرأت على الشيخ سيدي محمد المولود بن ابراهيم، كان هذا الشيخ مشهورا بمعرفته رسم القرآن الكريم طبق رسم المصحف العثماني يرد عليه الطلبة من النواحي القريبة والبعيدة ليصححوا عليه الرسم المدون في مورد الظمآن للخراز وغيره من دواوين الرسم، كان رحمه الله حسن الصوت، إذا قرأ أثرت قراءته على السامع وأكسبته رقة وخشية ومكنت من قبله حلاوة الذكر الحكيم. مات سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف، ودفن قرب ضريح سيدي سليمان المهاجي، وقد حضرت دفنه وصليت عليه إماما بطلب من أنجاله، وكان المجمع كبيرا والمشهد رهيبا، رحمه الله".

ومن أشياخه محمد بن عبد الله اللعباني المتوفى في حدود 1320 هـ والشيخ سيدي عبد السلام بن صالح الغريسي- وقد وصفه شيخنا الطيب المهاجي بأنه شيخ القراءة في منطقتنا، تتلمذ شيخنا على يد هذا الشيخ نحوا من أربع سنوات وقال عنه بأنه أحد العلماء الأثبات في علم القراءات، وقد أطنب الشيخ المهاجي في كتابه عن شيخه صالح الغريسي ووصف قدرته العلمية والتربوية والتعليمية بحيث دخل في جزئيات أسلوب تعليمه في شرح المنظومات النحوية الطويلة وأورد بعض الأخبار عنه ودقق مستقصيا تضاعيف علمه، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها وهو دليل على حبه لشيخه وإعجابه بعلمه وتقديره لإمكانيات تدريسه وبحثه.

وذكر الشيخ الطيب المهاجي من شيوخه أحد أبناء عمومته وهو الشيخ محمد بن الفريح وكان أسن منه في العمر ولهذا كان ينظر إليه بمنزلة الوالد، ويكثر من ذكره في عدة مواضع من كتابه مما يوحي بأن له موقعا مؤثرا في

الأسرة، وكان حافظا لمختصر خليل وقد ختمه الشيخ الطيب المهاجي أربع ختمات أو أكثر على يديه، وكان الشيخ ينظر إليه على أنه أحد من كشف عنه الحجاب أو أوتي الكرامات، وضرب مثلا لذلك في اهتدائه بمجرد اللمس إلى موضع الصفحة من الكتاب عندما كف بصره في آخر عمره، فلم يكن يخطئ الصفحة ولا يتجاوزها إلى غيرها.

وذكر الشيخ الطيب المهاجي أيضا طائفة من أسماء الشيوخ الذين أخذوا عنه وجلسوا للتدريس بإجازة أو إذن منه، ومنهم الشيخ عبد القادر بن مولود شقيق شيخنا المترجم له، ومن طلبته ابنه الشيخ محمد بن مكنوس بن الفريح وكان نادرة في الحفظ أخلفه أبوه على دروسه من بعده وقد ورث حب العلم عن أبيه الحاج محمد بن عبد الله بن الطيب بالفريح، وكان واسع الثراء سخيا في العطاء من أجل العلم ينفق على الطلبة من أمواله الخاصة في الوقت الذي كان يتوقع من مثله أن ينفق طلبته عليه الأموال، وهذا دليل على تمسكه بقيمه واحتفاظه بتقاليده فضلا عن شدة سخائه الذي زاده قوة وتمكنا من نفسه لفرط علمه بأصول الدين والفقه والشريعة بالإضافة إلى وشائج النسب التي تمتد إلى آبائه وأجداده حتى ترقى إلى مستوى الأسباط من أحفاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الشيخ رحمه الله وهو الحاج محمد بن عبد الله بن الطيب بن مصطفى بن الفريح من خاصية الأمير عبد القادر الهاشمي الجزائري.

وقد بلغ من اهتمامه به وحبه إياه أنه لما مر الحاج محمد بن عبد الله بن الطيب بن مصطفى بن الفريح المهاجي بدمشق في طريقه إلى الحج عام 1298 هـ عرج على الأمير ليراه فاستقبله الأمير أطيب استقبال فكان ضيفا عليه طيلة مكثه في دمشق، وكان الأمير يفخر به وبأبيه بين العلماء عند انعقاد حلقتهم في مجلس الأمير، وكان الأمير يشيد بشرفه ونبله ويصفه بأنه من فضلاء نبلاء الجزائر، وبلغ من تعلقه به أنه استبقاه في ضيافته في داره ستة أشهر، أو يزيد، وقد فعل الأمير كل ذلك إكراما لذكرى والد هذا الشيخ واعتزازا بصداقته وأخوته له في أيام الحرب الجزائرية الفرنسية والتي رافقه فيها والد الشيخ الحاج محمد بن عبد الله وابن عم والده السيد بن فريحة[54] في جميع غزواته وخاضا معه سائر حروبه ولازماه من ابتداء أمره إلى أن فارقت بينهم صروف الدهر وانتقل الأمير عبد القادر إلى المشرق بسوريا (دمشق) وعاش السيد ابن عبد الله نتيجة حبه للأمير عبد القادر وتعلقه بوطنه وتخليصه من يد الاستعمار ينتظر عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر قائدا على رأس جيش لمحاربة فرنسا، لكن القدر فاجأه بموته فرثاه بقصيدة شعرية[55]واصفا إياه بالشجاعة والبطولة أيام حروبه مع الاستعمار الفرنسي والتضحيات التي قدمها لوطنه ومدى تأثر المواطنين الجزائريين الأحرار لخبر وفاته، وكانت لهذه القصيدة الأثر البالغ في نفوس محبيه ومريديه رحمهم الله.

---

[54] تاريخ امهاجة مصدر سابق، ص: 63.

[55] كتاب "الأثر الزاهر وذكر النسب الطاهر"، ص 270.

غير أن السيد بن فريحة وثلاثة من أبناء عمومته من قرية أولاد سيدي الفريح ممن كان لهم دور في صفوف القيادة لجيوش الأمير عبد القادر لقوا مصيرا مجهولا على أيدي القوات الفرنسية إيمانا منها بأنهم يقومون بدعايات ويبثون بين الأوساط أن الأمير عبد القادر سيعود إلى الوطن وينظم دولة فاعتقلتهم ونقلتهم إلى فرنسا في موضع مجهول، قتلوا أو ماتوا فيه، ولا يعلم إن كانوا دفنوا أو تركوا في العراء طعمة للوحوش[56]وتقتضي المناسبة هنا أن أذكر بأن السيد ابن عبد الله بن الطيب بن مصطفى بن سيدي الفريح هو جد والدي رحمه الله الذي أخبرني أنه كان له أربع بنات جدتي إحداهن وأنه كان مرة في مجلس له مع أقربائه فسأل عن أبناء العمومة ممن لم يتزوج حتى الآن ويطمح إلى واحدة من بنات عمومته فجعل يناقش المبادرة ويقترح إلى أن انتهى به الأمر إلى تزويج أبناء العمومة من بناته وهن عائشة وخديجة وخيرة ويمينة.

وأما عائشة فقد تزوجت من جدي لأبي السيد الحبيب بن محمد بن مصطفى بن سيدي قدور بن مصطفى بن الفريح.

وأما خديجة فتزوجت بالسيد الفقيه الميلود بن محمد الكبير بن سيدي عده بن مصطفى بن الفريح.

وأما خيرة فقد تزوجها السيد الطيب شقيق الفقيه سي الميلود بن محمد الكبير.

56 كتاب "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" ص 82.

وأما يمينة وهي الكبرى فكانت متزوجة من أحد طلبته وهو السيد علي بن زلاط الملقب بـ "مصنف".

فأدى بذلك ما يرضي عنه الشرع ويحكم به الدين وترتاح إليه الأسرة، لما لهذا الرجل من منزلة عظيمة في نفوس قومه ومكانته بين أبناء أسرته، هذا ما حدثني به والدي رحمه الله.

وأما ما تركه ابن عبد الله من الولد فهو الحاج محمد الذي سبق وأن ذكرناه في ضيافة الأمير عبد القادر بدمشق وقد ترك هذا الشيخ من الأولاد محمد المعروف بالشيخ مكنوس الذي كان يتصدر الإفتاء في بيت والده بمدينة سيق بسبب سمعته الذائعة بين شيوخ عصره، وكان يجلس للتدريس أيضا شأن أبيه حتى توفاه الله سنة 1368 هـ وكان من نظرائه الشيخ الطيب المهاجي وشقيقه الشيخ الفقيه أحمد الذي كان هو الآخر يتصدر الفتوى في بني قومه، يؤم الناس في الصلاة ويعطي دروسا في العبادات.

ومن شيوخ الطيب المهاجي الشيخ محمد بن العربي خريج مدرسة مزونة القريبة من وهران وكان الشيخ درس عليه باب المواريث من مختصر- خليل، ومن شيوخه أيضا الشيخ محمد الكندوز التنسي-، والشيخ المولود بن الحسين الشعيبي التنسي- شيخ الشيوخ في الجزائر، وقد وصف مدرسته بقوله:

"كانت مدرسته رحمه الله فرعا من فروع الجامعة الأزهرية لا ينقصها سوى أنها أسست بالبادية بعيدا عن الحواضر، ولو أنها أنشأت بإحدى المدن الكبيرة في الوطن الجزائري لكان لها صيت في أنحاء المعمورة، لكن الشيخ الشعيبي اختار تأسيس مدرسته في البادية ليحارب الجهل الذي فشا بها أكثر من الحاضرة".

كما أنه يصف لنا شخصيته العلمية وبساطة حياته بقوله[57]:

"كان الشيخ الشعيبي زاهدا ورعا لين الجانب، يجالس المساكين ويعطف عليهم، ويسعى في قضاء ما يرفع إليه من حاجاتهم، كما كان يحسن إليهم ولو بالقول الميسور. أما الأغنياء وأرباب الوظائف الحكومية، وأصحاب الألقاب الضخمة فإنه كان يتجنب مخالطتهم ما أمكنه، ذلك مع كونهم يرغبون دائما في مقابلته، ويحرصون على الجلوس ولو لحظة بين يديه. كان رحمه الله غيورا على الشريعة، لا يخاف في الصراحة بالحق لومة لائم". ويستمر الشيخ الطيب المهاجي في الحديث عن شيخه بشيء من التباهي والافتخار فيقول:

"كانت كلمته نافذة بين الأوساط، فإذا قال فإن قوله هو القول الفصل، وإذا أفتى في نازلة لم يلتقت لفتوى من خلافه كائنا من كان يفصل في الخصومات بمقتضى قوانين الشريعة الإسلامية فينقاد الخصوم لما حكم به، ويسلمون تسليما. وكان رحمه الله شديد النكير على أهل البدع من بعض الفرق والطوائف."

---

57 أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 51.

وعالج في سيرته قضية هامة في حياة العلم، وهي قضية التعليم والتأليف، وأيهما أفضل للعالم، أن يتفرغ للتأليف أم يتفرغ للتعليم، وكان رأي الشيخ الشعيبي أن التعليم أنفع من التأليف، وهي قضية علمية تربوية لم تزل مثار جدل بين رجال التربية والتعليم، وأن استثارة الشيخ لها والتفاتته نحوها في شخص شيخه الشعيبي دليل على دقة ملاحظة شيخنا المترجم له وحسن إثارته لقضايا علمية هامة عالجها في هذا الكتاب وهي قضية جديرة بالالتفات إليها والكتابة فيها لأنها تعكس سيرة علمائنا المعاصرين والمتقدمين وتنبه على أمور قد نكون نحن في غفلة عنها وكذلك فيها إتمام لما ينقص البحث في وقته أو يحتاج إليه التعليم أو المحاضرة في أوانها، وقد علق على ذلك الشيخ الطيب المهاجي بقوله[58]:

" لم نر للشيخ الشعيبي تأليفا ولا بلغنا أنه ألف في فن من الفنون. ولقد طلب منه التأليف مرارا وتكرارا، فيقول الاشتغال بالتعليم أنفع من إنفاق الوقت في التأليف. ثم يقول: وماذا عسى أن يكتب من يتصدى للتأليف .. وقد كثرت والحمد لله المتون والشروح والحواشي، وحتى التقارير بحيث لم يبق قول لقائل، وغاية ما يكتب المتصدي للتأليف أن يجمع النقول ويذكر الخلافات التي يمكن الوقوف عليها قبل كتابته وبعدها".

58 أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 51 - 52.

فالتأليف كان له فضل التعرف على الشيخ عن طريق كتابته ولولا تصنيفه لهذا الكتاب لانطمس ذكره، لكنه في حقل التعليم استطاع أن يحفظ لنا ديمومة العملية التعليمية والعلمية ولولاها لتوقف طلبة العلم، فهو قد ضحى بشهرته في المستقبل من أجل التعليم، لكن المؤلف يضحي بشهرته الآنية لعدم انتشار الكتاب يومئذ إلا أنه يضمن خلوده وشهرته في قادم الأجيال.

والأمر الآن يختلف، إذ التأليف يعطي الشهرة آنيا أيضا لكن التعليم يصنع للأستاذ فريقا من العلماء يلهجون باسمه وينطقون عنه ويشعر بالسعادة العلمية في انتشارهم في أرجاء البلاد أو العالم الإسلامي، وإذا فكل فريق من الفريقين المتناقشين في هذه المسألة وجهة نظر معززة بالواقع وله أيضا أدلته وبراهينه كما أن لكل من هاتين الحالتين التأليف والتعليم فوائدها ومردوداتها وأبعادها وعمقها وعراقتها وحداثتها.

ثم أورد الشيخ إجازة الشعيبي له للإفتاء والتعليم، بقوله:

" . . . ثم بعدما أقمت بمدرسة الشعيبي مدة وصححت عليه معلوماتي السابقة، وتلقيت منه ما كنت أتمنى الوصول إليه والحصول عليه، أجازني إجازة عامة كتبها بخط يده الكريمة، وهذا نصها بالحرف:

" بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى مولاه، الغني القدير، المولود بن على بن المولود بن محمد بن الحسين بن محمر بن البسكري ين أبي شعيب، قد التمس منا الفقيه العالم الأديب، والفاضل النجيب، السيد الطيب المهاجي بن المولود العربي المهاجي التبرك بالإجازة بعد إقامته لدينا للتعلم والاستفادة والآن أراد التصدر للتعليم والفائدة، ففيما اقترحه منا ناجزناه، وفيما تلقاه منا أجزناه كما ورد أيضا مجاز منا بما أجازنا به مشايخنا رحمهم الله تعالى راجيا من الله سبحانه حصول بركتهم لي وله موصيا له بتقوى الله العظيم، وأن يسلك في أموره المنهج القويم، وأي يلازم راجح المذهب في الإفتاء والتعليم، وألا ينسانا من صالح الدعوات في الخلوات والجلوات، وفي مجامع الخير وأدبار الصلوات، وفق الله أخانا لصالح الأعمال، وبلغنا وإياه منتهى الآمال، وصلى الله على سيدنا محمد الصادق الأمين وآله وصحابته أجمعين، والحمد لله رب العالمين".

وهكذا نرى أن الإجازة العلمية التي كانت تمنح للطالب يومئذ تأتي نثرا كما تأتي شعرا أيضا ، بحيث تكون عامة وشاملة لجميع الأغراض والفنون التي كان الطالب يتلقاها على مشايخه من علوم دينية ولغوية وفلسفة ومنطق وبلاغة، وأصول الشريعة والتفسير والحديث، وأنها تدل على قوة بيان، ورجاحة عقل، وسلامة تصوير، وحسن تفكير.

كما أننا نرى أنه قد ساعدته البديهة وأسعفته القريحة، واستجاب له بيانه في تحريرها، وكيف كان معجبا بشيخنا الطيب المهاجين وقد أثر من

الثناء عليه، والمديح له، والرضا عنه، وبالدعاء إليه بأن يسلك سبيل الحق في الدرس والفتوى.

وقد ذكر من بين شيوخه السيد الحبيب بن النجار المدرس بجامع الأتراك بوهران، ثم الشيخ محمد التواتي التونسي- الذي درس عليه علوم الحساب، وكان التواتي هذا يحضر درس الشيخ الطيب المهاجي في علوم التفسير والفقه وأورد لنا من ضمن أشياخه حافظ المغرب الشيخ أبو شعيب الدكالي وقد حصل على إجازة منه في علوم الحديث.

وعد من مشايخه شيخا آخر هو العباس أحمد البلغيثي العلوي ثم الفاسي (ت 1328 هـ) الذي أجازه في علوم الفقه واللغة، وقد جاءت الإجازة بأسلوب يغاير ما اصطلح عليه طلاب الإجازة، إذ تقدم شيخنا المترجم له بطلب الإجازة في شعر من بحر الرجز، فأجازه شيخه برجز مثله وهذه من غرائب الإجازات ونوادرها وهي دليل على الدراية والتمكن، وأدرج بين شيوخه شعيب الجليلي قاضي الجماعة بتلمسان والإجازة شعرية أيضا، ويضيف إلى قائمة شيوخه القاضي سيدي أحمد بن حسن المختاري، كما يضيف إلى مجيزيه الشيخ بدر الدين محدث الشام الساكن في دمشق، ويخبرنا أيضا أنه عندما حج في عام 1350 هـ طلب شيخنا الإجازة من بعض المشايخ فأجازوه، وأدخل في مشايخه أو المواهب الشيخ أحمد الشريف السنوسي الخطابي الذي كان عمر المختار الشهيد من قواده في أثناء الحرب الليبية الإيطالية، كما كان من مساعدي مصطفى كمال في حربه مع اليونان، وقد قرأ هذا القائد التركي صحيح البخاري على يد

الشريف السنوسي وذلك قبل أن يتنكر مصطفى كمال لجوهر دينه الحنيف ففارقه الشريف السنوسي واعتكف في جوار الحرم متعبدا متزهدا.

وكان من شيوخه أحمد الأمين بن عزوز وقد زاره الشيخ الطيب المهاجي بمنزله بمكة فأجازه مشافهة إجازة عامة، ثم عاد فأرسل إليه الإجازة مكتوبة فأبلغها إليه رجل يدعى عبد القادر بن المفتي الجزائري، المقيم بمكة، وكان الشيخ قد أنابه عنه في تسلم تلك الإجازة، وورد في كتابه إليه قوله بالإجازة إن إجازة المشافهة لدى السماع وأمام الجمهور أقوى وأثبت وهذه إضافة جديدة إلى أسلوب الإجازة بين العلماء.

وكان الشيخ رحمه الله يهتم كثيرا بمثل هذه الإجازات، حتى نراه يسعى إليها عند كبار العلماء من أهل الدراية والاطلاع، رغم الرتبة العلمية التي وهبته نشاطا عقليا كان فيه كثير الدرس والتحصيل والقراءة في العديد من العلوم والفنون، بحيث كان قدر الكتابة عنده في الإجادة لا في الإكثار، ويظهر ذلك جليا في تآليفه التي ضمنها العديد من الأفكار والآراء المستنبطة من الكتاب والسنة وكتب التراث.

وكان رحمه الله يعلن رأيه في الكتاب الهزيل، والقول الضعيف، الذي لا يكاد ينهض بمعنى، ولا يقوى على الأداء، بصراحة القول وحرية التفكير، بعيدا عن تهمة التحامل أو المجاملة.

الإبداع الفكري

لقد تحدث أهل وهران كثيرا عن حسن مقام هذا الشيخ الجليل الطيب المهاجي رحمه الله، وثبات جنانه وبلاغة لسانه، وشدة وقاره، صليبا في الحكم، مقدما على إقامة العدل والحق، وإزهاق الجور والباطل، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، والرد على أهل البدع والأهواء،

وكانت عنايته بنشر العلم تفوق كل عناية فأنشأ مدرسته بالمدينة الجديدة التي لا تزال إلى اليوم تحمل اسمه ومكانته، لنشر الدين والعلم معا، لأنه كان يرى رحمه الله أن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف، وكان من أعلم شيوخ زمانه في النحو واللغة والبلاغة والمنطق ، ومعاني الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض.

وقد سجل لنا هذا الشيخ الجليل تراثا عقليا رائعا، ونتاجا فكريا محترما، وأدبا رفيعا، وعلما نافعا، كفيل بأن تشع منه حضارة وهران في جهارة صوت واعتزاز نفس.

لقد أوضحت لنا السطور المتقدمة عن نسب الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله وأسرته أنه يمتلك من الأسباب ما يجعله قادرا على أن يحدث تغييرا في الحركة الثقافية التي كانت تعاني من الجمود بسبب الهيمنة الأجنبية عثمانية كانت أم فرنسية، فكان شحذ قلمه في هذا الميدان خاصة بسعة علم وشجاعة وإقدام، فتميز رحمه الله بأسلوبه وثقافته العميقة في معطيات فكره أتاحتها لنا أبواب كتابه، جاز لنا أن نعطي بعض الأحكام المقتضبة والأفكار السريعة التي تكونت في ذهني من جراء هذا الاطلاع وهذه الموضوعات التي يعكسها الكتاب، والحقيقة أنني رأيت الكتاب على الرغم من حجمه المتواضع يحوي بين دفتيه أفكارا مكثفة لو أردنا أن نفك أسرارها ومعانيها لاستوجبت منها أصفارا.

وأما بالنسبة لثقافة الشيخ وتنوع معلوماته وكثرة مفرداته وغزير حفظه وجمال أسلوبه وجودة قلمه وتمكنه من اللغة، فإنني تمنيت لو أن الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله شغل نفسه طوال حياته في مؤلف كبير إلى جانب التعليم وما أخذت منه مدرسته، ولو كان هذا الانشغال في تأليف صفر عظيم في فن من فنون الكلام أو الفلسفة أو العلم أو التفسير أو البلاغة أو المنطق لترك للمكتبة العربية موسوعة بسط فيها كل ما في ذهنه من قدرة وحفظ ودراية وعلم.

أما على مستوى العلوم الدينية فكم كان بودي لو أن الشيخ رحمه الله عمد إلى تفسير معاصر للقرآن الكريم لأنه استوعب جميع كتب التفاسير على مديات الأعصر، فلو فعل ذلك لكان لدينا تفسير عصري لا يقل

جودة على تفسير القرآن للسيد قطب أو غيره ممن حاولوا أن يقدموا تفسيرا يناسب العصر الحديث مستلهمين تراث الأولين وكتب التفاسير مستندين على المفسرين الأوائل وأسانيد الصحابة وروايات الثقاة، لكن الشيخ انشغل بأمور التعليم وترك

جيلا من العلماء مع هذا الكتاب المتواضع الذي تجولنا بين أبوابه وموضوعاته ورأينا بأم أعيننا مقدار سعة الشيخ الطيب المهاجي وتمكنه من مختلف العلوم، فلو ألقيت نظرة على الجانب اللغوي لوجدت نفسك إزاء أستاذ حاذق في اللغة ملم بأسرارها، أما إذا نظرت إلى الجانب الفقهي فإن سمات الفقه واضحة في كتابه وقد رأينا من خلال الدراسة كيف كان حريصا على متابعة كتب التفسير والعلوم الدينية إلى جانب اهتمامه بالتاريخ، ثم القضايا اليومية العامة حتى في موضوع العلاقات الإنسانية وتحرير المرأة من الجهل وغمط حقوقها على غير ما يحكم به الإسلام.

وبعبارة موجزة فإن الشيخ الطيب المهاجي وكتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" قد أظهرا للقارئ أو الدارس أنهما جديران بالعودة في كل مرة إلى التأمل فيهما لأنهما سيعطيان الجديد عند كل قراءة أو معالجة علمية أو إجالة النظر في السيرة وأبواب الكتاب.

ومن ينظر إلى حجمه ويتتبع مصادره يستغرب كثرة المصادر التي اعتمدها الشيخ رحمه الله مع تواضع حجم الكتاب، فقد اعتمد ما يزيد على ستين مصدرا من المصادر ذات الأهمية القصوى في تراثنا التاريخي واللغوي وجميع العلوم الدينية، وأبرز ما يلتقي به القارئ في هذا الكتاب

هو كثرة استشهاده بآيات القرآن الكريم معتمدا على النسخة العثمانية وطبيعي أن تبرز على كتابه هذه الصفة لأن الموضوع يخص علوم القرآن وتعاليمه وأوامره ونواهيه أولا وآخرا وما سوى ذلك من المصادر إنما يأتي لخدمة هذا الغرض الشريف، وهذا راجع أساسا إلى كون أن شيوخنا الأوائل لم يكونوا يهتمون بشيء من العلوم غير علوم الشريعة وعلوم اللغة، وهذا بطبيعة الحال يتفق مع الروح السائدة في عصرهم الذي كانوا فيه بأمس الحاجة إلى هذه العلوم لتقوية الروح الإسلامية في قلوب المسلمين، والشيخ رحمه الله كان من أولئك الذين أمدهم الله بعلم غزير وحافظة خلاقة متمكنا من أطراف المعرفة، وإلمامه بصنوف ثقافة العصور المتعاقبة، الأمر الذي أهله لتأدية المهمة التي نذر نفسه لإنجازها، من تربية وتكوين، ووعظ وإرشاد.

جامع
الشيخ الطيب المهاجي

إن تشييد مسجد للعبادة أو لدراسة العلوم الفقهية والشريعة الإسلامية أو لتحفيظ القرآن الكريم في أي موقع من المواقع العربية والإسلامية له مدلول عميق في صميم الأمة وعلو شأن الدين فكيف إذا كان هذا المسجد يشيد ليحمل اسم شخصية دينية كبيرة ذا دور فعال فيكون ذلك المسجد منطلقا لتراثه وتآليفه وتصانيف وكيف إذا كان حامل ذلك المسجد رجلا عظيما فقيها عالما مربيا عرف بروح الجهاد والكفاح من أجل وطنه وبني قومه هو ذلك العالم الجليل الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله.

إنها التفاتة عظيمة من أجل إبقاء كلمة الله عالية تنطلق من رؤوس المنابر وقبب المساجد وأن يكون وراء ذلك رجال التفتوا إلى ما لم يلتفت إليه غيرهم، أولئك الذين ألهاهم الربح والكسب، أما هؤلاء الرجال فإنهم وإن ربحوا أو كسبوا ليحسبون ذلك عليهم دينا من الله يجب أن يؤدوه إلى

خلقه من علمائه أو رجاله أو مجاهديه أو ممن تعثر بهم رزقهم أو رث حالهم فيؤدون مما أكسبهم الله إلى هذه الطائفة من خلقه.

وهكذا نهض فريق من أهل الخير والصلاح وذوي الوجاهة والصدارة بين قومهم أو وسط مجتمعهم فنادوا بضرورة تشييد مسجد كبير في الغرب الجزائري وعلى وجه التحديد في مدينة وهران، مدينة العالم الجليل الذي يشيد المسجد باسمه "الشيخ الطيب المهاجي" رحمه الله.

وهو مسجد أسس على غرار الجامعات الإسلامية الكبرى كجامعة القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، لكن تخطيط البناء تخطيطا عصريا يتماشى والحياة الاجتماعية المعاصرة من حيث التصميم والتجهيز والعمارة.

فقد استقل مسجد الشيخ الطيب المهاجي بموضع ممتاز حيث يتوسط مجموعة أحياء وهران الكبرى وهو مؤلف من عدة سرايا ذات نمط واحد تتساوى في الحجم والطول. وقد استخدمت فيه الريازة الحديثة من حيث النوافذ وفتحات الإضاءة المتعددة مع المحافظة على المعالم التراثية لمثل هذه الأماكن، وفي وسط المصلى فتحة واسعة بنيت على شكل قبة أعطت المصلى جمالا وروعة، وأول دخولك للمسجد على اليمين منه يخترق السقف نحو باطن الأرض سلم يؤدي إلى سرداب واسع لعله يكون لطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم، ولازالت الأشغال جارية به حتى اليوم من عام 2002م.

وزارعي بذور الطيبة ألا ولست أبتغي أن أقوم باستعراض جميع الأسماء الخيرة النيرة التي ساهمت من قريب أو بعيد في هذا المشروع العبادي الإلهي الكبير، وإنما لفة انتباهي أن يكون من بينهم رجلان فاضلان كريمان من فاعلي الخير وصانعي المحبة وهما السيدان الحاج البشير بن عفان بن هارماس بن عبد القادر بن عواد

والحاج الكبير محمد ميلود، وأن ذكري لهذين الرجلين لا يعني أنني اقتصرت على أفضلهم أو أشهرهم، وإنما ذكرت ما وصل إليه استقصائي وبحثي منهم، ولربما يوجد رجال لا يقلون عن هذين الرجلين فضلا .

أما الحاج البشير[59] بن عفان بن هارماس بن عبد القادر بن عواد من أولاد ارماسية بأرض القعدة من بادية امهاجة، وقد سبقت الإشارة إليه في ص: 22 من هذا التأليف فقد كان على الدوام من السابقين للخير والعاملين على إعمار بيوت الله بالخير والمحبة والصدقات، فهو إحدى الرجالات الذين لهم الفضل في العمل من أجل بناء بيوت الله وهو يتمتع بخبرة واسعة في هذا المجال، كما كان أحد المؤسسين الأوائل لهذا المسجد الكبير الذي حمل اسم الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله.

والسيد الحاج البشير على خلق عال من التواضع والمحبة، كثير الاتصال برجال العلم والعلماء، الفقهاء منهم والشيوخ وحفظة القرآن الكريم، وله مكانة خاصة عندهم يحبونه ويقدرون فضله وجهده في سبيل العلم وتعمير بيوت الله وهم له راضون.

---

59 تاريخ امهاجة ص:129.

وأما الحاج الكبير محمد الميلود الذي عرف بين الناس بورعه وتقاه وصدق عبادته إلى جانب نشاطه في العمل، وهو حتى في عمله لا يتخلى عن طباعه الخيرة من أجل مساعدة الضعيف، فتراه في عمله متخذا من مشاريعه ملاذا للذين لم يحصلوا على حقهم في الدنيا وتكفي زيارة له في عمله ليرى الزائر كيف يتعامل مع الناس بالحسنى والعمل الصالح سواء، وهو يزور العاملين في مصنعه والموظفين المحيطين بمكتبه أو المراجعين له أو عندما يرد على أحدهم وهو يتحدث بأسلوب رقيق لطيف يدل على دماثة الخلق. فكيف لمثل هذا الرجل ألا يشارك في هذا المشروع العبادي ماديا ومعنويا، فهو رجل واسع الكف كثير العطاء، بارا بمن قصده أو استعان به، لا يرد صاحب حق، ولا يرضى بباطل، واسع الفكر، كريم النفس، صاحب نكتة ومجلس.

وقد اشتهر هذا الشيخ الفاضل بغزارة كرمه حتى زاد ذلك في شخصيته واهتمام الناس به، والتفافهم حوله، مضيافا محبا للخير ويسارع إلى استجابة الإغاثة وطلب العون مما يدل على كرمه وسعة أخلاقه فهذا هو الحاج الكبير محمد الميلود الذي يسعى دوما كما يسعى محسنون آخرون من أمثاله وهم كثر إلى تخليد ذكرى أحد رجال العلم الذين كان لهم الفضل في نشر الوعي الثقافي والديني والاجتماعي والسياسي ضاربا عرض الحائط كل التعاليم والقيود التي فرضتها فرنسا يومئذ على الشعب الجزائري فأقل ما يجازى به هذا الشيخ الجليل هو بناء مسجد يحمل اسمه تعبيرا منهم عن

الوفاء له ولعمله الصالح وعلمه النافع حتى يبقى ذكره حيا خالدا بين الأجيال ويكون في ذلك روح واستمرار لمثل هذه الأعمال التي تحافظ على التراث والأصالة.

وقد زرته مرة واصطحبت معي أستاذا فاضلا كان زائرا عندي من العراق الشقيق وكان الوقت وقت إفطار من شهر رمضان المبارك لعام 1996 المصادف لعام 1416 هـ بعد أن عرفته عليه ومن مبالغته في تتبع إطعام الصائمين على نفقة مجموعة كبيرة من المحسنين وهو واحد منهم إلا أنه تعهد بهذا الواجب المقدس أن ينجزه في مصنعه، فكان الفقراء من رجال ونساء يحملون أوانيهم وقصاعهم يغترفون من ذلك الطعام ليفطروا به بعد صيام يوم كامل لوجه خالقهم الكريم، وكان الحاج الكبير محمد الميلود يرعى ذلك العمل ويحدث العمال على إطعام كل من يأتي من رجل وامرأة حتى الضيوف الذين جاءوا من خارج المصنع أجلسهم وأفطر معهم، وجميعهم يثني ويمدح ويدعو له بطول العمر وتمام الصحة لمن يقدم هذا المعروف، ولم يستطع زائرنا الذي أشرت إليه أن يكتم مشاعره الطيبة اتجاه هذا الرجل فأثنى عليه أمام جماعات القادمين الزائرين والمفطرين فلم يضبط مشاعره فارتجل أبياتا في حينها شكلت قطعة جميلة في صفة هذا الموقف وكيف تجمهر الناس، هذا يمد بصحنه وذاك يمد بقصعته والحاج الكبير فيها بينهم يحث على الخير والطعام ويشجع الرجال والنساء أن يأخذوا أكثر وأن لا يبخلوا على أنفسهم لأن الخير موجود وكثير اقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: "يظل المال ليس لك حتى تنفقه".

أما قائل هذه الأبيات هو الأديب الدكتور عادل جاسم محمد البياتي الأستاذ بجامعة بغداد:
قال:

رأيت بابا على الخيرات منفتحا
وسيدا برضـــاء الله متشحا
وبائسا وعفيفا تحت طائلة
من وطأة الفقر والأسقام قد رزحا
ونسوة ليد الإحسان ناظرة
غرثى وثكلى ووجهـــا نيرا سمحا
فقلت من ذلك الوجه المنيـر إذا
به "الكبير" يبيح الخير والفرحا
محمد الحاج، مولود أبـوه ومن
أشاع سيرته، بالحق قد صدحا
صلى وزكى فلم تهدأ سريرته
أهدى وزاد فألقى المـــال قد ربحا
فضل "الكبير" إذا ما عم كان لنا
فوزا وفتحا من الرحمن قد فتحا

شكوت دهري "عمارا[60] فأنبـأني
عمن يطبب للأحشـاء مـا انجرحـا
وقلت لم يبق في الإسلام من أحـد
من الرجال أو الأحـرار والصلحـــا
فقال فيهم بقايا سوف تعرفـه
إذا جنحت به نحـو الهدى جنحـا
ومن أراد به الجلى ومكرمـه
بين العبـــاد أصاب الخير أو فلحا
الحمد لله إذ لـم يأتنـي أجلي
حتى اهتديت إلى من صبحـه وضحا
ومن إذا سكت الإلهـام أنطقتني
ومن إذا خرست أقلامنـا فصحـا
إن الكريم إذا قربت تقرضـه
رايتـه يسبق الأشعـار والمدحـا
كذا "الكبير" إذا ما جئت تمدحـه
وجدتـه بكلام الله منشرحـــا

60 هو الدكتور قدور ابراهيم عمار المهاجي ممدوح الشاعر الأستاذ الدكتور عادل جاسم البياتي، الأستاذ بجامعة بغداد .

وقبل أن ابدأ في فك رموز القصيدة لا بد لي أن أوضح شخصية الحاج الكبير محمد ميلود في سيرته الذاتية ونشأته الأولى ومسقط رأسه وانتقاله إلى وهران وهو الحاج الكبير محمد الميلود من مواليد مدينة مغنية عام 1936 م من أب عرف بالتقوى والصلاح محمود السمعة بين أهل مدينته وبني قومه وأقرانه، فهو من قبيلة أولاد نهار التي ترجع في أصل سلالتها إلى أولاد سيدي الشيخ في الجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية.

ولد الفتى محمد الكبير بن المولود في تلك القرية ونشأ مع لداته يتعلم القرآن الكريم في كتاتيبها، ثم دخل المدارس الرسمية حتى تهيأت له الفرصة أن يرحل إلى فرنسا مهاجرا، بينما كانت الثورة الجزائرية في أوج صراعها وعنفوانها احتدامها واصطدامها بالغاضب المحتل وهناك تبوأ مركزا سياسيا في الثورة الجزائرية في المهاجر الفرنسية حيث قلد مسؤولية المنطقة السياسية لأوروبا حتى عام 1962 م عندما حصل الاستقلال وعاد إلى الجزائر فتقلد عملا إداريا هو مدير التشريفات لولاية وهران، وبعد مضي عام على ذلك العمل سنحت له الفرصة ليرحل إلى القاهرة من أجل إتمام دراسته وبقي في القاهرة سنة واحدة، عاد بعدها إلى وطنه الجزائر، وكان طموحا أن يشتغل في أعمال حرة لا سيما تلك الأعمال التي تتعلق بالعلم والدراسة، فأسس مدرسة حرة لذوي العلوم الإدارية يتعلمون فيها وقد دام عطاؤها واستمرت في التعليم من عام 1964 م حتى عام 1976 حيث أممت، فتقلد الحاج الكبير محمد الميلود مديرا عاما لشركة المواد الغذائية، لكنه استطاع أن يمهد الطريق للدخول مع شريك لتسيير مصنع في الحديد

والصلب فتيسر له ذلك وكرس جهده لإدارته ولم يزل قائما حتى اليوم من عام 1998 مـ .

ولم تهدأ سريرة الحاج محمد الميلود حتى سولت له نفسه أن يشيد مدرسة في ولاية أدرار تحت اسم "المدرسة المهنية لتكوين الشباب" وهذا العمل ليس غريبا عليه فقد عرف عنه في مطلع شبابه رغبته في إنشاء دور العلم وقد قدمنا لذلك عندما تحدثنا عن تشييد مدرسة لذوي العلوم الإدارية.

ولم يزل أطال الله في عمره ومنحه الصحة والسلامة على ذلك العهد والدأب من أجل تقديم المشاريع الخيرة والأعمال النافعة بالإضافة إلى مد يد المساعدة والتعاون مع الجمعيات والمؤسسات الخيرية ودور العلم وأماكن العبادة حيث يشارك في الندوات والمؤتمرات ويشجع على إقامتها ماديا ومعنويا وله مكانة خاصة عند العلماء والفقهاء ورجال الدين وأهل الأدب واللغة من الكتاب والباحثين الشعراء منهم والناثرين.

وقد وعدت القارئ الكريم أن أنوه بقصيدة الأستاذ الزائر عندما وقف على ذلك المشهد الجليل والنسوة والرجال العفيفون يقفون حول تلك المثابة والحاج الكبير يحث الناس على المبادرة في العطاء.

قال:

رأيت بابا على الخيرات منفتحا

وسيدا برضاء الله متشحا

وبائسا وعفيفا تحت طائلـــة

من وطأة الفقر والأسقام قد رزحا
ونســـــوة ليد الإحسان ناظـرة
غرثى وثكلى ووجهـا نيرا سمحا
فقلت من ذلك الوجه المنيـــر إذا
بـه "الكبير" يبيح الخير والفرحا

ثم أوغل الشاعر في تجسيد شخصية ذلك المحسن فأعطى أوصافا حقيقية لكرمه وبذله المال من أجل المعوزين فقال:

محمد الحاج، مولود أبوه ومـــن
أشـــــاع سيرته، بالحق قد صدحا
صلى وزكى فلم تهدأ سريرتـــه
أهـدى وزاد فألقى المـال قد ربحا
فضـل "الكبير[61]" إذا ما عم كان لنـا
فـوزا وفتحا من الرحمـن قد فتحا
شكـــوت دهري "عمارا[62]" فأنبأني
عمن يطبب للأحشـاء مـا انجرحا
وقلت لـم يبق في الإسلام من أحـد
من الرجـال أو الأحـرار والصلحا

---

61 وفي رواية أخرى للمخطوط 'فضل عمار'.

62 هو الدكتور قدور ابراهيم عمار الأستاذ بجامعة وهران

فقال فيهم بقايا سوف تعرفه

إذا جنحت به نحـــو الهدى جنحا

ومن أراد به الجلى ومكرمة

بين العبـاد أصاب الخير أو فلحا

ثم تنتقل القصيدة إلى مشهد جديد يمس هذه الزيارة فيذكر موثقا تاريخ الحادثة واصطحاب الدكتور قدور ابراهيم عمار[63] الأستاذ بجامعة وهران، وكيف صرح له عن إعجابه بالشيخ الكبير وأغرق في أوصافه وذلك في الأبيات الآتية:

شكـــوت دهري "عمارا*" فأنبأني

عمـن يطبب للأحشاء ما انجرحا

وقلت لم يبق في الإسلام من أحـد

من الرجـال أو الأحرار والصلحا

فقال فيهم بقايا سوف تعرفـه

إذا جنحت بـه نحو الهدى جنحا

ثم يدخل الشاعر في باب أدته إليه المكارم التي خص الله بها الشيخ فالتفت الشاعر إلى هذا الجانب وشكر خالقه على أن خصه بنعمة رؤية هذا الرجل الكريم ثم يختم القصيدة بعودة إلى دخائل نفس الكريم فيصفه

---

63 مؤلف الكتاب

* الهامش رقم '58'

وصفا دقيقا يمزج فيه بين كرم أخلاقه وأنه يفعل ذلك عن نفس سمحة بلا تكلف وأن جميع هذه الفضائل يضعها ليقترب بها من الله وليس لمديح الناس له لأنه فوق المديح وما يقال فيه:

إن الكريم إذا قربت تقرضـــــه

رأيته يسبـــق الأشعار والمدحا

كذا "الكبير[64]" إذا ما جئت تمدحـــه

وجدته بكـلام الله منشرحا

والشيخ الكبير وغيره كثير من الذين كان لهم الفضل في تأسيس هذه المدرسة العلمية الدينية التي حملت اسم صاحبها الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله في بعده التاريخي والديني والثقافي، الذي كان قدوة وهران في وعظه وإرشاده، وفي تعليمه وتكوينه، وعدله واستقامته، وورعه وزهده، وصلاحه وتقواه.

فانتشار هذه البيوتات في طول الوطن العربي وعرضه والإسلامي في بعده، يمثل اعتزازا باللغة العربية والحرص عليها، مما يضمن لها القوة والخلود، والذيوع والانتشار.

فكان رحمه الله أشد الناس حبا للغة العربية، وتفانيا فيها، وغيرة عليها، وهو طابع غلب على درسه طيلة عهود من الزمن، فوهب بها سكان وهران الإقبال على العلم والمعرفة ليتزودوا بالزاد النافع من الثقافة والتهذيب، وكان ذلك هدفه في بعث بوارق الرجاء والأمل في أن تتسع

[64] وفي رواية أخرى "كذاك عمار"

دائرة العلم والمعرفة بهذه المدينة التي أحب الجهاد فيها لما رآه من مخالطة لغتها العجمة، ومطاردتها العامية، حرصا منه على حفظ كلام العرب فيهم، ورواية أخبارهم، من لغة أو مثل أو حكمة أو شعر أو تاريخ أو نسب، أو ما هو مقتبس من القرآن الكريم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، محليا بذلك صدور كلامهم بالإيمان وصدق اللسان.

وكانت وهران طيلة عهودها مدينة تهددها الأحداث، وتصطلح عليها الخطوب، من غير ذنب سوى أنها تحتل مكانا يستلهم منه الغزاة خطتهم الحربية في بلوغ أعمالهم ومآربهم الاستعمارية، مما جعلها تنفرد بمزايا متنوعة من آثار متفرقة ومعارف مختلفة، ومراكز دينية عالية السند، تزاحمت عليها أقدام العلماء وطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم، كانت كلها تنطلق منها الضاد وتهتف باللغة العربية، وتدافع عن اللسان، في بعده القومي والوطني، وهذا ما ينبؤنا به تاريخ وهران في جمارة صوت واعتزاز نفس، وهذا في حد ذاته وسام شرف لها

وهذا هو العمل المخلد في نظرنا لصاحبه الذي يمثل الصدقة الجارية، وذلك لما ينفرد به هذا الصنيع عن سواه من ألوان الصدقات في سائر العصور التاريخية المختلفة.

ولعل هذا هو السبب من بين أسباب كثيرة، هو الذي حدا بأولئك المؤمنين المحسنين الذي قاموا بتشييد هذا المعلم التاريخي العظيم، الذين أحيوا به صاحبه أبد الدهر، فطوبى لهم بما صنعوا، من عمل صالح، بسلامة ضمير، ونقاوة سريرة، وقوة الإيمان،

وقد جاء في الأثر، عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،

" من ورخ مؤمنا فكأنما أحياه، ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره، ومن زاره استوجب رضوان الله، وحق على المزور أن يكرم زائره[65] ".

فنطلب الله سبحانه وتعالى أن يثيبهم أجرا ويعوضهم خيرا فهو نعم المولى ونعم النصير.

65 مقدمة كتاب " الإعلام بمن حل وهران من الأعلام " دار الغرب للنشر والتوزيع 2002 مـ.

منابع علمه

تقاس قدرة العالم والباحث بمقدار وقوفه على مصادر اختصاصاته فإن تنوعت وتعددت كان النتاج عميقا والنتائج واسعة لأن كل قضية في العلم لها عمق يميزها ومنابع تسقى منه والعالم أو الباحث هو الذي يقوم بمهمة توصيل هذه المصادر إلى القضية التي يعالجها.

والعالم المتمكن من علمه يكون عادة كثير المصادر عميق المنابع فتأتي دراساته وعلمه واسعا عميقا وقد تنوعت مصادره بين كتب تفسير وأثر أو سنة، وبين كتب تاريخ ومعاجم وفهارس، واعتمد حتى الدوريات مثل مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ رضا واعتمد صحفا مثل الصحيفة التي كان يصدرها الشيخ ابن باديس، رحمه الله وهي صحيفة الشهاب.

ونلاحظ بين مصادره مراجعة حديثه مثل كتاب "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟" لشكيب أرسلان، وكان يحرص إذا ذكر المصدر أن يذكر صاحبه إلا إذا كان الكتاب مشهورا فيكتفي به أو يكتفي باسم مؤلفه، لكنه قد أورد أسماء بعض المصادر التي كانت في ظنه أنها معروفة لدينا لكنها أصبحت بالنسبة إلينا مجهولة، وكانت في زمانه مألوفة متيسرة لا سيما أنها

لم تطبع فأهملت بسبب تحول الدارس من نظم المدارس الدينية والكتاتيب القرآنية إلى نظم المدارس الغربية الحديثة، فاشتد الإقبال على هذه المدارس وضعف على تلك لأسباب مادية ودنيوية وغير ذلك، ومع هذا فإن مصادره القيمة المعروفة لم تزل تحتفظ بمكانتها في المكتبة الإسلامية، مثل كتب صحيح البخاري وكتب الأثر والتفسير، وكتب اللغة وكتب التاريخ والمعاجم والفهارس.

وسيلاحظ القارئ من قائمة المصادر التي أوردها في كتابه أن الرجل استعان بما يحتاج إليه بحثه من المصادر بحيث لم يترك شاردة ولا واردة ولا ثلمة ولا ثغرة إلا سدها بمصدر أو تداركها بمرجع أو استعان عليها بكتاب أو حولية أو دورية أو جريدة، وهذا دليل على سعة اطلاعه وتمكنه من مادته مما يجعله في طليعة علماء عصره ويجعل كتابه معتمدا أساسا في جميع الجوانب التي ذكرناها.

فالشيخ الطيب المهاجي رحمه الله كان على اطلاع واسع ودراية تامة بكتابات الأوائل والمتأخرين ومعاصريه بحيث انتفع من جميع هذه المصنفات والمضان انتفاعا تاما يدل على حسن تصرف وتأمل وبعد نظر، فهو من الفقهاء الذين كانوا يلتزمون في دروسهم بالإبانة الواضحة، والمنطق الصحيح، والتعبير السليم، من غير تلعثم في النطق، ولا عجز في اللفظ،

فهو عميق في فقهه، جم في إدراكه، ودليله هو محصوله الضخم، ورصيده الغزير، في الحفظ والمطالعة والدرس والتحصيل، الذي أعطاه منهجا في الإقناع، وسبيلا في البلاغة،

فالشيخ رحمه الله كان يتمتع بشخصية قوية تظهر عليها مثل الخلقية التي يعتد بها العربي منذ جاهليته من مروءة وسماحة وعزم وعفة وعزة نفس وإباء وشجاعة وكرم.

فهو من أولئك الذين كانوا يلتزمون بهداية الرسالة وصلتها بالله سبحانه وتعالى والإيمان بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت لهذه الصفات الكريمة أثر في علاقته بالناس فأقبل التلامذة والطلاب يجالسونه ويدرسون عليه، وأقبل العلماء يحضرون مجالسه ويتحدثون إليه، ويتابعون حلقات درسه في المؤسسة الدينية التي اتخذ من وهران مقرا لها،

كما أنه استطاع رحمه الله أن يكون علاقة وثيقة مع الأعيان والوجوه النيرة الخيرة لمدينة وهران الكبرى، ونال عندهم حظوة عظيمة، وكان لهم قدوة في ندواته ومجالسه،

فهو الخطيب البارع في أسلوبه البياني وبلاغته المعهودة وفصاحته المتوارثة، وأدبه الذي فطر عليه بمدارسة العلم وحفظ كلام العرب، فهو يتمتع ملكة قوية وفصاحة بدوية.

وهو من العلماء الذين استطاعوا أن ينالوا شهرة الارتجال، بقدرتهم على الابتداه، ونالوا فيها من السمو والرفعة ما لم ينله غيره من خطباء الجمعة والأعياد أو المناسبات الدينية الأخرى.

لقد احتضنته وهران، فكانت له موطن الإلهام والوحي، بما ناله فيها من مكانة مرموقة ومنزلة ملحوظة، ونفوذ وجاه، ومهابة واحترام، وقد مكنه سلطانه للعروبة والإسلام بالدفاع عنها، وبأمجادها والمباهاة بها، وكانت مدرسته بها بمثابة عامل قوي من عوامل التجديد في مظاهر التفكير والنهوض بإحياء اللغة العربية ومدارسة الكتاب والسنة، ففاخرت بانحداره منها، ونشأته فيها، وانتسابه إليها،

وقد اعترف له تاريخها بمكانته العلمية والدينية والتربوية وذلك من خلال ما قدمه لها طيلة عهود من الزمن، من جهد شاق وعمل متواصل دؤوب، قدم فيه من النصح والتوجيه والإرشاد والتعليم والسير على الجادة والسلوك السوي، في إرساء الثوابة الوطنية وتحرير النفوس من الجهل والتعصب والأنانية، وقد بلغ فيها مبلغا حسنا.

وكانت وفاته عام 1969 مـ من شهر أكتوبر ودفن في مقبرة مول الدومه بوهران في توديع مهيب. تغمد الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنانه.

الخاتمة

لا بد لنا بعد هذه الرحلة الطيبة التي قمنا بها لنتعرف على شخصية الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله أن أعود في خاتمة الكتاب لأجدد القول في ضرورة تعريف الجيل بسير أولئك الأفذاذ الذين حافظوا على تراث أمتهم وأوصلوه سالما معافى إلى أيدي أبنائهم وطلبتهم، لأن من حقهم علينا أن نعترف لهم بهذا الفضل وأن نمهد لهم طريق المجد والخلود في ذاكرة الأجيال، وهذا مقصودنا في كل دراسة أو بحث يتعلق بتراثنا العربي الإسلامي، وكذلك هي الغاية من دراسة هذا الشيخ الجليل الذي تناولنا نشأته في بيئته وبين قومه كما تطرقنا إلى دراسة رحلاته وما قدم للناس فيها من معارف وتجارب وعبر وحكم ظهرت آثارها في الفصل الذي درسنا

فيه قدراته وإبداعاته، كما تطرقنا إلى رجال عصره من أبناء قريته ووطنه وما أخذ عنهم وطوره وقدمه للقراء، فكان من تأثير ذلك أن لاحظنا إبداعه الفكري في قضايا تتعلق بالفقه وعلوم الدين مما عمق منابع علمه وتعدد اختصاصاته، حتى إنه يعد من الإصلاحيين الذين نظروا إلى ضرورة تحرر المرأة وتخلصها من براثيم الجهل والاستعمار، كما كان يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي وأن تسود روح العدل والمساواة وتطبيق الشريعة الإسلامية، وهذا كله يضاف إلى علمه الغزير في أصول الدين والفقه والثقافة العربية الإسلامية.

وعليه فإننا نقول إن الدارس المتفحص لشخصية هذا الرجل الدينية والعلمية ليبين لنا بعض وقائعها المفقود من خلال ما تركه من بصمات على هوامش كتبه التراثية ومختصراته وحواشيها والإضافات التي تعادل المختصر منها، ومصنفاته العلمية في النحو والصرف والبلاغة والمنطق، المنضبطة في مفاصيلها ونظامها وفق مناهج الأولين في مراحل تطورها ذات الأصل الواحد والمنحى اللغوي المشترك، في معقولية علمية وواقعية متقنة التي يصعب على الباحث العادي أن يهتدي إلى جذورها في الأصل وفي مكوناتها المعنوية واللفظية الذي امتد لواقع أسبق منها وتطورت عنه وحمل كثيرا من خصائصها وخصوصياتها، ما لم يكن يحسن التوغل في صميم هذه البنية الفنية اللغوية بشكلها الداخلي والخارجي، وبواقعها وتاريخها البعيد، القادم إلينا بمراحل تطوره على أيدي متمرسين وأرباب صنعة بارعين وعمالقة مبدعين،

فالشيخ الطيب المهاجي رحمه الله من الذين أجمع الناس على صلاحه واستقامة سلوكه، فهو من رجال العلم المشجعين على القراءة والكتابة والدرس والتحصيل وعلى نشر الثقافة عامة والعربية الإسلامية خاصة.

إن ثقافة هذا الشيخ الواسعة، وتوليه التدريس، وعصره الذي عاش فيه، وبيئته التي اضطرب فيها، كل ذلك ترك في وهران آثارا واضحة المعالم، لم نزل بعد نكشف عن بعض جوانبها العميقة، المتمثلة في التراث الذي تركه لنا في التاريخ واللغة والفقه والحديث والتفسير والشروط والفرائض والنحو والصرف والبلاغة والمنطق، حيث كانت هذه العلوم أساسا لتربيته العقلية منها والعلمية في بلاغة عربية أصيلة، هذا من جهة ومن جهة ثانية ذلك الجيل الذي لقنه الجد والمثابرة على البحث والتنقيب والعمل على ما أخذوه عنه من علوم عقلية أو نقلية، أو من أثر أطلعهم عليه كالأخبار والروايات والأنساب التي تساهم في ترقية العلوم ونشر علومها.

والمتمثل أيضا في نبعه الأصيل، ودينه الحنيف في منحاه ومبناه الموروث منه والمنقول والمتأمل، ، فجاءت سيرته إتماما لعمله وتتويجا لاتجاهاته الفكرية وآفاقه العلمية، التي هو بها جدير، وبمعرفتها قدير.

وبوفاته رحمه الله، ودعت وهران أحد رموز الفكر العربي الإسلامي، وكبير من كبار رجالات علم الحديث والتفسير، وعلوم اللغة وآدابها، والشريعة وأصولها، والثقافة الإسلامية وفنونها.

وقد أفنى عمره رحمه الله في النصح والتوجيه والإرشاد والتعليم، وفي إثارة الهمم، وإيقاظ العزائم، والحث على الجهاد في محاربة الاستعمار، والاستشهاد في سبيل الله، رحم الله شيخنا الطيب المهاجي وطيب ثراه.

سائلين منه الرضى ومن الله الجزاء، فهو نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور

قدور ابراهيم عمار

المهاجي

موضوعات البحث

استهلال 7
تقديم 11
النشأة 21
آفاقه الواسعة 39
قدراته وإبداعاته 47
الشيخ والشعر 65
علماء عصره 69
الإبداع الفكري 83
جامع الشيخ الطيب المهاجي 87
منابع علمه 99
الخاتمة 103
فهرست الموضوعات 107

دار الغرب للنشر والتوزيع
2003

هذا الكتاب

نتناول فيه سيرة هذا الشيخ الجليل، بكثير من الأمور الثقافية والعلمية، المشتملة على الوعظ والإرشاد والتربية والتكوين، التي تضيف إلى مادة الكتاب القوة والحياة، القابلة لكل تطور، والاستجابة لكل عصر، وهو الشيخ الطيب المهاجي رحمه الله، الذي يأنس له العلماء العاملون ويقتدي به المؤتمون والطلبة الدارسون.

لقد ارتبطت حياة هذا الشيخ الفاضل إلى حد كبير ببيوتات العلم ودور الثقافة والدرس والتحصيل، استطاع من خلالها أن يحقق لنفسه عملا ضخما بعيد المدى، بمفهومه العميق وأدائه الدقيق، المزدحم بالمعاني الإسلامية، والروح الوطنية، الغني بالألفاظ والشواهد والصور، المليء بالنقاش الهادئ، والحجج والآداء والأسلوب.

وبذلك نكون قد أضفنا مرة أخرى لبنة جديدة من أعماله الطيبة وجهوده الخيرة، إلى رصيدنا في النشر والتأليف، الذي يكشف عن صحة المعرفة وعمقها، بما يستفيد منها الباحث ويستزيد، وغيرها كثير من الأعمال التي أتوفر عليها اليوم حول العديد من هذه الظواهر الوطنية، من المنشور والمخطوط والرواية والخبر، الشيء الذي يجعلنا أن نطمئن على سلامة جزء غير قليل من هذا الموروث، الذي لا يزال يحفل به وطننا، لأن هذا الضرب من التدوين قليل، والتراث منه غير قليل.

المؤلف/ عمار المهاجي